عبد الوهاب مطاوع

450

الرسم فوق النجوم

A.M.

http://wahetelkotob.com/

الدار المصرية اللبنانية

واحة الكتب

الرسم فوق النجوم

فى هذا الكتاب الممتع ، يتحفنا الأديب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بعشرين موضوعًا من موضوعاته الإنسانية ، التى تتميز بها كتاباته ، ويتجلى فيها أسلوبه الرفيع ، الذى يمس شغاف قلوب القراء .

ومن المعروف أن مئات من القراء يلجأون إلى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ، حين تعصف بهم مشاكلهم الشخصية ، ويحيط بهم ماقد يصادفونه من متاعب الحياة ، فيتصورون أنهم قد وصلوا إلى طريق مظلم أو مسدود ، يطلبون فيه نجدتهم وإرشادهم إلى الخلاص من مشاكلهم ومتاعبهم ، أو مواساتهم فيما يعانونه من آلام وأحزان .

وهنا تتجلى موهبة الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ، التى منحها الله له ؛ فيرشد من يلجأون إليه إلى سواء السبيل . . ويعيد إليهم الأمل بعد اليأس والعذاب .



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب « بريد الجمعة » الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له ٤٧ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها . ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : «أماكن فى القلب» و «لا تنسنى» ، و « الحب فوق البلاط » .

Sat.
18/4/2014

مكتبة الشرق
تلفون ٤٥٤٦٨٢٣
14



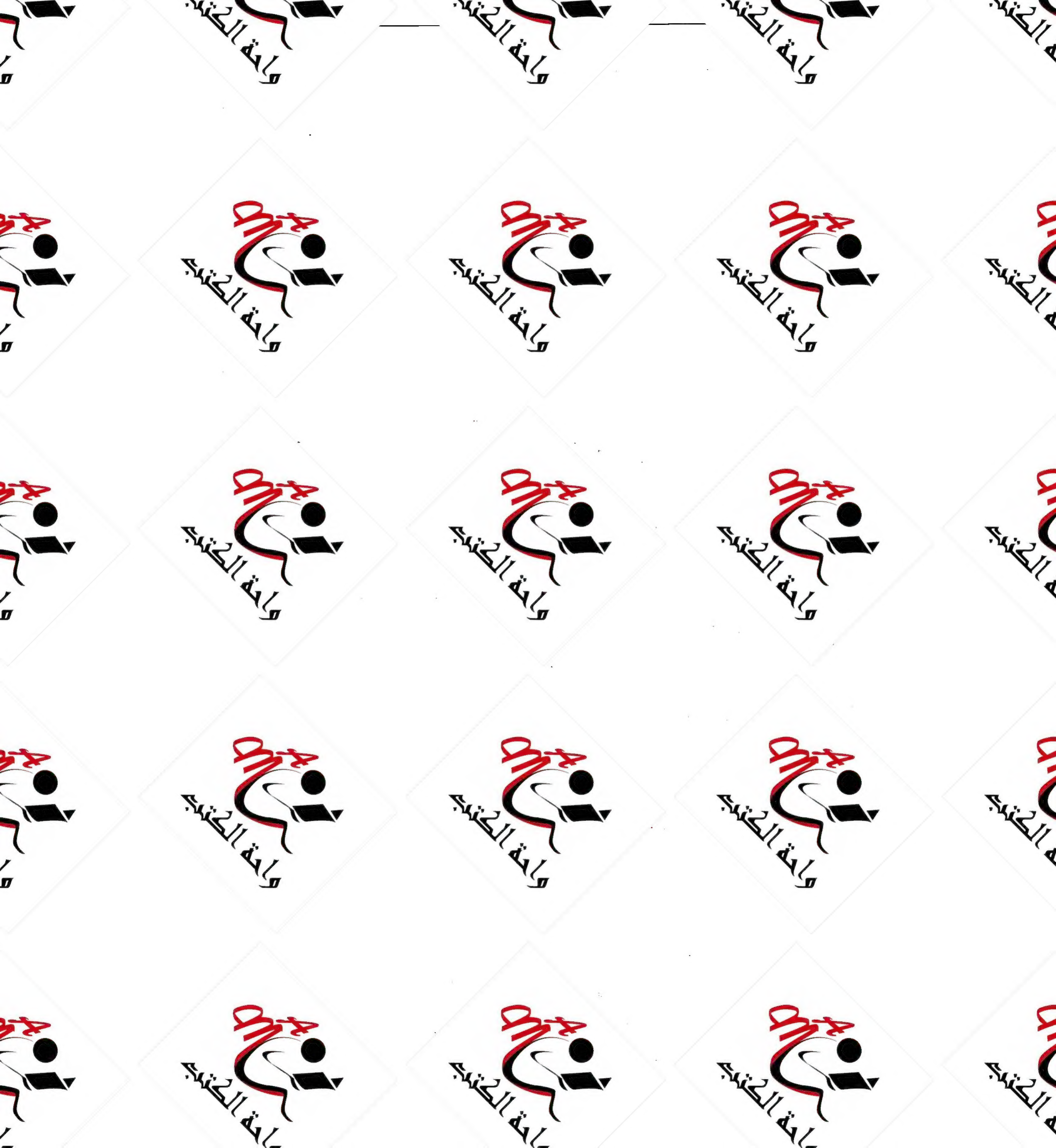


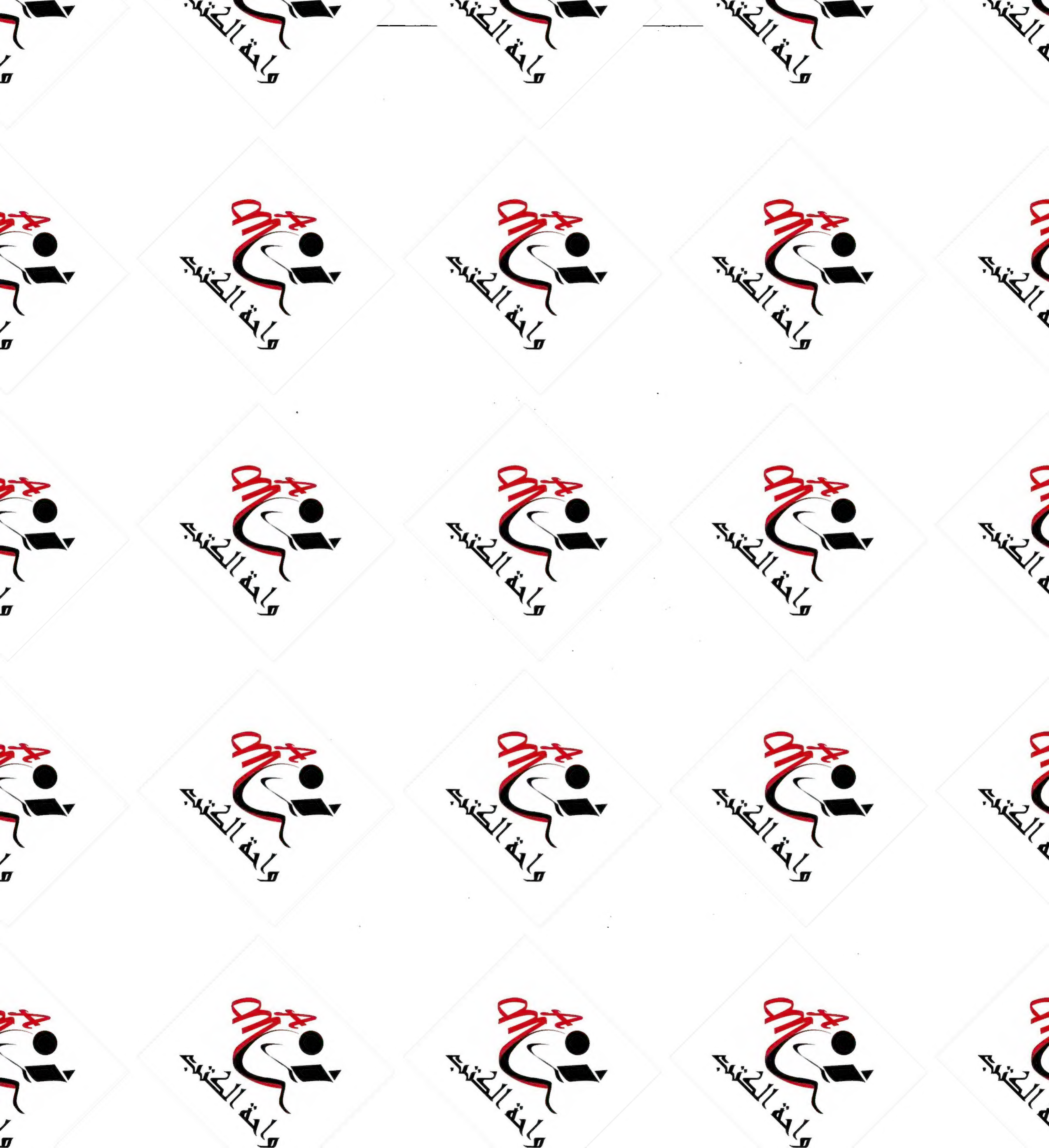
عبد الوهاب مطاوع

الرسم فوق النجوم

الدار المصرية اللبنانية

واحة الكتب


واحة الكتب


واحة الكتب

مقدمة

أعادتنى مراجعة أصول هذا الكتاب لإعداده للنشر إلى أجواء الفترة الزمنية التى كتبت فصوله خلالها قبل سنوات.

فلقد كتبت فصوله منفصلة واحدًا بعد الآخر على مدى عامين.. وكان لكل فصل منها باعث أوحى إلى فى حينه بفكرته، وحفزنى إلى كتابته..

وحين بدات إعداده للنشر . استغرقتنى ذكرياته .. واستعدت الكثير من الصور والشخصيات التى ألهمتنى كتابه مقالاته.. وخيل إلى اننى أحاورهم من جديد، وأجتر أفكارى عنهم أو معهم..

إن كل كتاب يخطه قلم الكاتب هو بالنسبة له قطعة غالية من

الحياة، على حد تعبير الروائى الكولومبى الحاصل على جائزة نوبل جابرييل جارسيا مركيز، وهو أيضا ذوب أفكاره وخواطره وأحلامه وتطلعاته وهواجسه فى فترة من فترات الزمن صاغها على الورق..

ولقد استلهمت عنوان هذا الكتاب من الرسالة الوداعية الحزينة التى بثها الروائى الكولومبى الكبير على موقعه الخاص بشبكة الإنترنت، حين علم بتدهور حالته الصحية عقب إصابته بالمرض اللعين، فكتب رسالة يقول فيها للجميع إنه لومنحه الله قطعة أخرى من الحياة، لاستمتع بها أكثر مما تمتع بعمره السابق الطويل، ولنام أقل واستسلم للأحلام اكثر، ورسم فوق النجوم، وغسل الزهور بدموعه، ومحا كل الأحقاد من قلبه.. ولأحب كل البشر.. وطالبهم بألاتحمل قلوبهم للآخرين إلا الحب.. والصفاء..!

ولقد تأثرت كثيرا بهذه الرسالة الوداعية حين قرأتها لأول مرة، وحين كتبت عنها فى حينها.. وتجدد تأثرى بها مرة أخرى، وأنا أراجع فصول هذا الكتاب فاخترت تعبيرها الفريد عن «الرسم فوق النجوم» عنوانا له.. ورمزا لآمال الإنسان الحسيرة التى يتطلع إليها أبدا.. ويعجز عن تحقيقها فى معظم الأحيان!

عبد الوهّاب مطاوع



.. ولــم أتعــلم!

كنت فى شبابى أحب
صحبة من هم أكبر منى سنّا وأسعد
بالاقـتـراب منهم، وأحاول جاهدًا
اكـتساب خبرة الحياة منهم والاستمتاع
بأحاديثهم ومعارفهم وذكرياتهم.

وحين كنت فى أوائل العشرينيات من عمرى كانت «شلتى» المفضلة التى أقضى معها سهرتى اليومية مكونة من مجموعة من الفنانين والصحفيين، أصغرهم فى منتصف الخمسينيات من العمر.. وأكبرهم يتخطى عمره السبعين.. ومع ذلك فلقد كنت أجد نفسى بينهم.. وأجلس كالمسحور مصغيًا لأحاديثهم وذكرياتهم.. وأعتبر نفسى صديقًا حميمًا لهم مع كامل الاحترام لهم، وكانوا ـ والحق يقال ـ يعتبروننى كذلك صديقًا مقربًا إليهم.. ولا يشعروننى أبدًا بفارق السن الكبير بينى وبينهم، ويتعاملون معى بلا أى استعلاء على شبل صغير مثلى فى حلبتهم ولا بأى محاولة لإشعاره بالقزمية إلى جوار قاماتهم العالية فى الحياة والفن والصحافة.

فلم يذكرنى معظمهم بما قاله الشاب فى رواية فرنسية للشيخ الذى أسرف فى إشعاره بالضآلة وقلة الخبرة والنقص:

ماذا فعلت لكى تعطى نفسك كل هذا الحق فى الإحساس بالاستعلاء علىّ؟.. إن كل ما حققته من «مجد» فى حياتك هو أنك قد جئت إلى الحياة بلا فضل لك فى ذلك.. قبلى بثلاثين عامًا!

وكان إثراؤهم لى بخبرة الحياة يجرى بطريقة غير مباشرة ولا محسوسة، إذ كان يكفى أن ألاحظهم.. وأرقب تصرفاتهم وسلوكياتهم، وأستمع إلى أحاديثهم، وأسألهم عما يغمض علىّ من شئون الحياة، لكى أتعلم منهم الكثير والكثير بغير أن يمارس أحدهم معى تجربة المعلم والتلميذ ولا أسلوب التلقين المباشر.. وكان أحبهم

إلى قلبى وأكثرهم تأثيرًا فى نفسى وشخصيتى ورؤيتى للحياة هو المرحوم الفنان الكبير محمد عبد المنعم رخا، فنان الكاريكاتير المبدع.. والرائد الذى مصَّر فن الكاريكاتير، وكان فنانًا فى حياته وعلاقاته الإنسانية وصداقاته.. ومنه تعلمت فلسفته القدرية فى الحياة، وألفت سماع عبارته الشهيرة.. التى يرددها فى كل الأوقات خاصة فى أوقات المحن والأزمات والضيق: خلّيها على الله!

ثم يتبعها بطلب فنجان من القهوة السادة، يحتسيه بتلذذ واستمتاع شديدين، وكأنه يقضى أسعد أوقات حياته وليس أكثرها عناءً.. واستمتعت أكثر وأكثر بسماع ذكرياتهم عن الصحافة والفن، وطرائفهم عن الشيخ زكريا أحمد الملحن العظيم.. وبيرم التونسى شاعر الشعب المبدع، وقد كان الاثنان من أصدقاء رخا الحميمين.. وكثيرًا ما قضيت الساعات الطويلة وأنا «أنكش» المرحوم رخا بالأسئلة عن زكريا وبيرم اللذين لم أسعد للأسف بمعرفتهما شخصيًا - فينطلق رخا يروى عنهما فى حب وإعجاب ويستأثر بأسماع من حوله وإصغائهم له بالساعات، حتى نكتشف بعد قليل أن الساعة قد اقتربت من الرابعة صباحًا، وأن حارس مبنى نقابة الصحفيين يقف بالقرب منا «متوسلاً» لنا أن ننهى جلستنا الممتعة لكى يطفئ أنوار المبنى ويستسلم للنوم!

وبسبب انبهارى بأحاديث رخا وشلة الأصدقاء هذه، واجهت فى

حياتى العملية إشكالية «صغيرة» فى التوفيق بين واجباتى فى العمل وطموحاتى كشاب فى بداية حياته الصحفية، ورغبتى القهرية فى ألا أفترق عن رخا وشلته إلا لساعات النوم القليلة.. لكى أستمتع إلى أقصى حد ممكن بأحاديثه وروحه الطيبة المرحة المحبة للجميع حتى لمن آذوه منهم من قبل. ولم يكن من الممكن بالطبع أن «أعتذر» عن عمل لكى أستمتع بصحبة الأصدقاء والأحباء إلى ما لا نهاية، فكان الخيار الوحيد أمامى هو إنقاص ساعات نومى، لكى أتمكن من التوفيق - بقدر الإمكان - بين عملى وصحبتى لهؤلاء الأحباء.. وبالرغم من ذلك، فلم تكن هذه «الشلة» تنجو من تطفل بعض من لو كانوا من «قوم نوح لما ركبت السفينة» كما قال الشاعر الكبير على الجارم واصفًا أحد الثقلاء.. فلقد كان لرخا أصدقاء عديدون بينهم الظرفاء وأصحاب المثل العليا الذين يتفقون معه فى رؤيته للحياة، وبينهم كذلك من لا يتشابهون معه فى أخلاقياته ومثالياته.. لكن العِشرة القديمة تفرض عليه قبولهم فى دائرته، و«الحذر» منهم فى الوقت نفسه!

وكان من بين النماذج البشرية العجيبة التى رأيتها مع رخا رجل بدا لى فى البداية ثقيل الوطأة على الآخرين، وشديد الصمت والتكبر والتحفظ مع الغرباء، فنفرت منه تلقائيًا، وتعمدت التزام الصمت فى حضوره إلى أن ينصرف عنا بسلام.. ثم لاحظت شيئًا

غريبًا هو أن رخا يتكفل سرًا بأداء ثمن طلباته فى النقابة أو مقهى سوق الحميدية سواء حلَّ على الشلة بعد اجتماع شملها. . أو سبقها للجلوس فى المقهى ومعه صديق أو صديقان. . ولم أشأ أن أسأل عن ذلك حفظًا للكرامات، إلى أن «نكشت» رخا ذات مرة ليحدثنى عنه. . فإذا بنفورى منه يتحول إلى حب كبير. . وإذا بى أستقبله فى المرة التالية بابتهاج وحفاوة كبيرين، وأحرص على إشعاره باحترامى الشديد له.

فلقد عرفت من رخا أنه قاضٍ بالمعاش، يعيش وحيدًا فى شقته بوسط القاهرة، على معاش صغير لأنه خرج من القضاء فى سن صغيرة، وقبل أن يبلغ السن القانونية فلم يزد معاشه عن مبلغ ضئيل. . أما لماذا خرج إلى المعاش فى هذه السن المبكرة، فلذلك قصة غيرّت تمامًا نظرتى السابقة إليه، فالرجل لم يُخلق ليكون قاضيًا، وإنما خُلق فنانًا، وهو من حراس الموسيقى العربية المدافعين عنها باستماتة ضد هجوم الإيقاعات الغربية عليها. . وعضو بمعهد الموسيقى العربية، ومن حفظة التراث الغنائى العربى، ويرجع إليه المؤرخون الموسيقيون لاستجلاء بعض ما يغمض عليهم من تاريخ الموسيقى العربية وألحانها المجهولة لديهم. وبسبب تعصبه الشديد للموسيقى العربية، فقد منصبه القضائى قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، فلقد كان صاحب «مزاج» فنى، إذا استحكم نسى كل شىء

واستغرق فى العزف على العود وتحفيظ أى منشد يطلب منه حفظ لحن قديم للشيخ المنيلاوى أو محمد عثمان أو كامل الخلعى.. ولقد شاء له سوء حظه أن يزور محكمته الجزئية مفتش قضائى من وزارة العدل صباح أحد الأيام، ليراقب سير العمل فيها، فوجد قاعة المحكمة غاصة بالمتقاضين والساعة تجاوزت الحادية عشرة بكثير، ولم تنعقد الجلسة بعد، ودخل غرفة المداولة فوجد القاضى الفنان ممسكًا بعوده ومنهمكًا فى العزف والغناء وتحفيظ وكيل النيابة وكاتب الجلسة موشح: منيتى عز اصطبارى!

فغادر الغرفة ساخطًا، وكتب تقريره ضد القاضى الفنان.. فلم يمض وقت طويل حتى صدر القرار بإحالته للمعاش أو بإرغامه على الاستقالة، لا أدرى على وجه التحديد.. واستراح الرجل من عناء القضاء، وتفرغ لتحفيظ التراث العربى والدفاع عنه.. ثم مضت السنون وأصبح المعاش الذى كان يكفيه فى البداية.عاجزًا عن ملاحقة ارتفاع الأسعار، فتطوع رخا لتحمل تكاليف جلسته اليومية فى المقهى مع كامل الاحترام له ومع حرصه وحرص جميع أفراد الشلة، وحرصى كذلك بعد أن عرفت القصة، على عدم مخاطبته إلا بلقب فلان بك!

كما كان من بين المترددين على الشلة على النقيض من ذلك شخص لم أسترح إليه، على الرغم من مودته الظاهرة لى ولكل

أفراد الشلة.. ولقد نفرني منه أنه من هؤلاء الأشخاص الذين يندر أن يجيء ذكر إنسان أمامهم بغير أن يتطوع لأن يروى عنه ما لا يسره سماعه.. ولقد كان أفراد الشلة كثيراً ما يروون عن الغير وعن بعضهم بعضا الحكايات فى حضور أصحابها وغيابهم على السواء، لكن حكاياتهم عن الغائبين تدخل دائمًا فى باب الطرائف التى لا تسىء إليهم.. وقد يضحكون لها أكثر من بقية أفراد الشلة إذا أعيدت أمامهم.

أما هذا الشخص فلقد كان ممن وصفهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه «باللحميين» الذين ينهشون لحوم الآخرين فى غيبتهم، وأمثال هذا الشخص أشعر إذا فرضت علىَّ الظروف مجالسة أحدهم فى مكان ما، وبمجرد أن أكتشف «لحميته» بأننى جالس فوق الشوك وأرغب فى النجاة من وخزه، ولا أومن أبدًا بصدق مودة إنسان من هذا النوع لى مهما يبالغ فى إظهارها معتقدًا عن حق بأن من لم يدع أحدًا جاء ذكره أمامنا دون أن يطعنه فى صميم أخلاقياته وشرفه، لن يتورع عقب مفارقتى له عن أن يجعل منى طبقه المفضل الذى يتلذذ بالتهامه بنفس اللذة التى نهش بها من قبل لحوم غيره.. ولا أحب صحبة هذا النوع من البشر ولا الاستماع إلى سمومهم عن الغير مهما يكن موقفى منهم، كما لا أشجعهم أبدًا على الاستمرار فى مثل هذا الحديث أمامى.. بل لعلى أعتبر حديثهم هذا إهانة

شخصية لى قبل أن يكون إهانة لمن يتعرضون له؛ إذ أشعر بأن هذا الشخص قد أشركنى معه فى إثمه على غير إرادة منى.

وأتذكر قول الإمام الشافعىْ: «نزّهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شىء فى إنائه فيحرص على أن يفرغه فى أوعيتكم!».

فماذا «يبهجنى» فى أن يفرغ مثل هذا الشخص أخبث شىء فى إنائه.. فى وعائى؟ ولماذا أعطيه مثل هذه الفرصة؟

لقد كنت أتذرع بالأعذار لكى أغادر الشلة إذا تيقنت من أن زيارة هذا الشخص لشلتنا هذا المساء ليست زيارة عارضة تستغرق بعض الوقت ثم يرحل عنا بسلام، وإنما هى زيارة «مقيم» ينوى قضاء السهرة كلها معنا.. وكان أكثر ما لفت نظرى فيه ذات يوم أنه يركّز سهامه المسمومة على أحد المرشحين لمنصب نقيب الصحفيين فى ذلك الوقت، على الرغم من سابق مودته له.. فقلت بينى وبين نفسى لعل له عذرًا لا أعرفه فى هذه العداوة الضارية التى لا يراعى فيها أى حرمات ولا حدود، ويسلق خلالها الرجل بلسانه الحاد، وينسب إليه كل الرذائل بلا تحفظ.. ثم انتهت المعركة الانتخابية بفوز هذا المرشح بالذات بمنصب النقيب، ومررت بالمصادفة بعد أيام بمكتب النقيب الجديد فإذا بى أجد ذلك الشخص نفسه جالسًا إليه ووجهه يطفح

بالبِشر والابتهاج والسعادة الطاغية، وهو يزجى إليه التهانى الحارة بفوزه «المشرف» فى الانتخابات، ويروى له «بتأثر» كيف أسعده هذا الفوز حتى لقد عوضه عن أشياء كثيرة يفتقدها فى حياته.. والنقيب الفائز يستمع إليه فى «حب» و «امتنان».. والابتسامة العريضة الصافية تملأ وجهه!

وذُهلت لما رأيت وما سمعت.. فلقد كنت أعرف أن كلاً منهما يكره الآخر فى أعماقه كراهية التحريم، ويعرف جيدًا حقيقة مشاعر الثانى تجاهه.. وما يقوله عنه فى غيبته، ومع ذلك فلقد بدا لى الاثنان وكأنهما طائران متحابان يتناجيان ويتشاربان كؤوس الود والوفاء والإخلاص!

ورويت لأعضاء الشلة فى المساء ما شهدته متعجبًا منه، فإذا بأحد أفرادها يقول لى ناصحًا: هكذا هى الحياة.. فتعلَّم!

ويبدو أنه قد لاحظ علىَّ حاجتى إلى تعلم هذا الدرس الفاسد من دروس الحياة العملية فنصحنى به.. لكننى لم أتعلمه والحمد لله الذى لا يُحمد على مكروه سواه.. أو لعلى عجزت وهو الأصح عن تعلمه، ومازال من يعرفنى عن قرب وبعد هذا العمر الطويل يعرف «غضبى» منه إذا غضبت من ملامح وجهى حين أراه لأول وهلة قبل أن يعرفه من كلماتى له.. ومازلت لا أجد أى مبرر يدفعنى لأن «أتظاهر» بمودة من لا أشعر فى أعماق نفسى بالمودة الحقيقية له،

وأفضّل صراحة المشاعر على مداراتها والتظاهر بعكسها ولا أومن بما قاله الشاعر العربى القديم:

يقول لك العقل الذى ميز الحجـا
إذا أنـت لـم تـدرأ عـدوا داره
وقبّـل يـد الجانـى التى لست قادرا
على قطعها وأرقب سقوط جداره

وأفضّل أن يعرف من أحبهم، وهم الأغلبية الساحقة من معارفى والحمد لله، مودتى الحقيقية لهم بلا تزيد ولا مداراة، وأن يعرف من لا أستريح إليهم أو أعتب عليهم بعض مالم يرضنى من تصرفاتهم، وهم قلة والحمد لله، حقيقة موقفى منهم، ومن الوهلة الأولى.. عند اللقاء.. كما مازلت ـ على الرغم من سنوات العمر والخبرة ـ عاجزًا حتى الآن عن مجرد «النظر» فى وجه من لا أشعر تجاهه بالمودة الصافية فى نفس هذه اللحظة، ومازلت أيضًا أتفادى النظر فى عيون من أخذ عليهم بعض مواقفهم منى إذا اضطرتنى الضرورة الاجتماعية إلى التعامل معهم ذات يوم!

ولاشك أن كل ذلك ضد الذكاء الاجتماعى المرغوب لتيسير حياة المرء، وتفادى أشواك الآخرين بقدر الإمكان.

ولقد عبَّر عن ذلك إمام المتقين على بن أبى طالب كرم الله

وجهه، على الرغم من أنه هو شخصيًا لم يعمل به حين قال: أنكى لعدوك ألا تريه أنه قد صار لك عدوًا!

وعبّر عن شىء مشابه بطل فيلم الأب الروحى حين نصح ابنه قائلا:

- احتفظ بأصدقائك بالقرب منك

واحتفظ بأعدائك فى موضع أقرب!

لكى يكونوا - كما يريد أن يقول - تحت أنظاره دائمًا فيتفادى أخطارهم ويجهض مؤامراتهم ضده!

لكن من قال إن أهداف الحياة العملية تستحق كل هذا العناء.. فتقرب إليك الأعداء أكثر من الأصدقاء.. وتتظاهر بما لا تشعر به في حقيقة نفسك.. وتبتسم الابتسامة العريضة البهيجة فى وجه من تعلم علم اليقين أنه يتلهف على ذبحك لو استطاع!

لقد رفضت أن أتعلم هذا «الدرس» من دروس الحياة العملية عند البعض، ولست نادمًا بعد رحلة العمر على ذلك.

لكنى تعلمت على الناحية الأخرى من هذه الشلة من الكبار الكثير والكثير، واستفدت به كثيرًا بالفعل فى حياتى.







اعة





أجمل أوقاتى فى رمض
ساعة أو لعلها
تى تس





لسنوات عديدة اعتدت إذا لم أتأخر في العودة للبيت من العمل عن الوقت الملائم، أن أقضى ساعة الأصيل فى رمضان جالسًا إلى مكتبى الصغير فى مسكنى «أنظر» فى المصحف المفسر، وأحاول استجلاء بعض كنوزه مستعينًا بشفافية العقل خلال الصيام على اكتشاف المزيد من أسراره، أو أمد يدى إلى رفوف مكتبتى لأسحب بطريقة عشوائية أول كتاب تصل إليه.. وأقرأ أو أعيد قراءة بعض فصوله، وأكتشف فى كل مرة أننى قد فهمت شيئًا جديدًا من قراءتى هذه لم أستوعبه فى المرات السابقة.. وقد خطر لى ونحن فى الشهر الكريم أن أشركك معى فى ثمرات هذه القراءات فى أصائل رمضان. فهل لديك مانع؟

فى إحدى قصص مجموعة حكايات حارتنا للأستاذ نجيب محفوظ يروى الأديب الكبير قصة شاب صعلوك لا عمل له ولا مورد، تراءى له يومًا أن يدبر حيلة ينال بها إعجاب فتاة جميلة من فتيات الحارة فاتفق مع أصدقائه الصعاليك على أن يتحرشوا بها، ثم يأتى هو فيصرعهم بضربات تمثيلية وينقذها من بين أيديهم.. ونفذ الأصدقاء اللعبة وجاء عباس الجحش ـ وهذا اسمه ـ وانقض عليهم بضربات ساحقة ماحقة فتطايروا أمامه كالجرذان، وانصرفت الفتاة مبهورة بقوته وشهامته فروت لأبيها ما حدث وذاعت قصة بطولته فى الحارة بأسرع من البرق وصادف ذلك خلو عرش الفتونة بها، فما أن

أقبل فى اليوم التالى حتى فوجئ بمن يرحب به قائلاً: أهلاً بالمعلم عباس فتوة حارتنا الذى سيعيد إليها هيبتها الضائعة! وذهل الشاب البسيط، لكن اللقب رن فى أذنيه رنينًا مطربًا فساءل نفسه: ولماذا لا يجرب وقد يخدمه الحظ ويستمتع بعز الفتونة اعتمادًا على هذه الهيبة الزائفة؟.. ولم يُفلت الفرصة فجمع أصدقاءه وتقدمهم إلى المقهى ثم توجه إلى دكة الفتوة الخالية وجلس عليها بكل كبرياء فإذا بالرجال يتسابقون لتحيته وإذا بأعيان الحارة يجيئون إليه يخطبون وده ويقدمون إليه الإتاوات مقابل حمايته لهم! وطابت الحياة لعباس وأصدقائه وتطلع إلى المزيد فتقدم لخطبة الفتاة الجميلة فقوبل طلبه بما يليق به من ترحيب وفخر! وتم عقد القران واستعدت الحارة لزفة المعلم التى لابد أن تطوف بالحارات الأخرى فظهرت لعباس مشكلة مهمة. ذلك أن زفة الفتوة هى الاختبار الحقيقى لقوته وهيبته فإذا اعترضها فتوة إحدى الحارات فلابد أن يخوض معه معركة حقيقية لا معركة تمثيلية ليصرعه ويفوز بالأمان.. لكن عباس لم يتردد طويلاً فهيبته التى تأكدت داخل حارته قد امتدت بالضرورة إلى خارجها وسوف تكفل له الحماية والأمان.. وبدأت الزفة تتقدمها الورود والأعلام ويتصدرها عباس محاطًا بالأعوان، ومضت من حارة إلى حارة بسلام، فطرد عباس الوساوس من صدره وتراقصت الآمال فى خاطره، ثم ظهر فجأة فتوة حارة العطوف على رأس أعوانه رافعًا نبوته فى تحد صارخ وانحبست أنفاس الرجال واستعد أصدقاء عباس

للفرار، لكن عباس أذهلهم بثبات لم يخطر لهم على بال.. فقد تقدم من فتوة العطوف بجسارة جنونية ورفع نبوته ملوحًا به فى الهواء، فتقدم إليه الآخر بحذر فلم تهتز شعرة فى رأس عباس، وواصل الاقتراب منه بجرأة الأسود، وفى لحظة خاطفة انحرف إلى حارة جانبية بسرعة الصاروخ وأطلق ساقيه للريح وغاب فى الظلام! وتجمد الرجال لحظات ثم أدركوا حقيقة الموقف فانفجروا فى ضحكات هستيرية صاخبة ولم ير أحد عباسًا ولا أصدقاءه بعدها فى الحارة، وأصبحت حكايته قصة تُروى ومثلاً يُضرب على من يوهم الآخرين بقوة موهومة لا وجود لها إلا فى خياله ويبتزهم اعتماداً عليها، ثم يصدق نفسه ويفيق فى النهاية على الواقع المر بعد خراب مالطة!

ترى كم يتكرر فى الحياة نموذج عباس الجحش هذا.. وكم من أمثاله قد رأيناهم وشهدنا فرارهم المخزى عند أول اختبار جدى لأوهامهم ودعاواهم؟!

* * *

وفى مذكرات الروائى الأمريكى المبدع «ارسكين كالدويل» حكاية غريبة من ذكريات اشتغاله بالصحافة فى بداية حياته.

فلقد كان يعمل محرراً بالقطعة فى جريدة محلية صغيرة، وهو فى العشرين من عمره، وصباح أحد أيام الاثنين ـ وهو بداية أسبوع العمل هناك ـ كلَّفه رئيس التحرير بالذهاب إلى أحد الفنادق

الرخيصة بالمدينة لكتابة خبر عن عامل انتحر بإطلاق الرصاص على رأسه فى غرفته بالفندق. فتوجه إلى هناك، ووجد الشرطة تحقق فى الحادث.. وحصل على اسم المنتحر، ثم خطر له ـ بإحساس الروائى الذى سيكونه فى المستقبل ـ أن يتقصى ما وراء أسباب انتحاره الظاهرية، فسأل موظف الفندق عما يظن أنه سبب انتحار عامل غريب وحيد جاء إلى الفندق مساء الجمعة.. وأمضى يومى الأجازة السبت والأحد سعيدًا يدخن ويحتسى البيرة فى البار المجاور، ثم استيقظ صباح الاثنين الذى ينبغى أن يتوجه فيه إلى العمل.. وأطلق رصاصة على رأسه!

فأجابه موظف الفندق بلا اكتراث: لاشىء.. سوى أنه صباح الاثنين الأسود!

وتساءل «كالدويل» متعجبًا: وما هو الاثنين الأسود هذا؟

فقال له: إنه اليوم الذى انتهت فيه عطلة نهاية الأسبوع ونهض فيه العامل من نومه.. وقد أنفق آخر سنت من أجره عن الأسبوع الماضى، وليس فى جيبه الآن سنت واحد.. وعليه أن يعود للعمل ليعمل ساعات شاقة طويلة كل يوم لاتتناسب مع أجره الضئيل، معتمدًا على وجبة طعام واحدة فى اليوم يقدمها له المصنع مقابل ثمن يخصم من أجره..

وليس له أصدقاء ولا أهل ولا أمل فى حياة أفضل.. ولا هدف سوى البقاء على قيد الحياة حتى يتسلم أجره فى نهاية الأسبوع،

فيأتى إلى فندق من هذه الفنادق الرخيصة، ويقيم ليلتين ويأكل ويشرب بعض ما يشتهيه فى حياته، ثم ينهض من نومه صباح الاثنين مفلسًا.. ويسأل نفسه: هل أواصل هذه اللعبة المملة أسبوعًا آخر.. أم يكفى هذا؟..

فبعضهم يقرر أن يواصلها أسابيع أخرى، وبعضهم الآخر ـ كهذا العامل البائس ـ يقول لنفسه: «يكفينى هذا».. ثم تكون المأساة!

فتساءل «كالدويل»: أيعنى ذلك أن الحادث قد تكرر بنفس تفاصيله من قبل؟.. فأجاب الموظف: مرات عديدة فى فندقنا.. وفى فنادق مماثلة.. وفى نفس اليوم.. لهذا سميناه.. «الاثنين الأسود» والشرطة تعرف ذلك!

حكاية غريبة حدثت فى أوائل العشرينيات فى أمريكا، مع بداية الأزمة الاقتصادية العالمية التى اعتصرت العالم كله لعدة سنوات..

ترى كم كان من المحتمل أن نسمع بمثلها فى مجتمعات عديدة الآن لولا عاصيم من الإيمان بالله ولولا جذوة من أمل فى غد أفضل؟.

* * *

بعض الكتب كبعض الأشخاص يحفرون فى وجداننا أثرًا لا ينمحى حين نلتقى بهم!

ومن هذا النوع من الكتب بالنسبة لى رواية «المحاكمة» أو

«القضية» للكاتب التشيكى العجيب فرانز كافكا الذى ولد فى براغ، لأسرة يهودية ثرية ومات فى فيينا وكان يكتب بالألمانية.

فلقد انبهرت بها حين قرأتها لأول مرة منذ سنوات عديدة، وشغفت بجوها الغريب الغامض الذى يصور قلق الإنسان وخوفه مما يجهله، وإحساسه المؤلم بأنه متهم بجريمة لا يعرفها، ومأخوذ بجريرة لا يطمح إلى أكثر من أن يعرف كنهها!

فكانت هذه الرواية هى بداية تعرفى على عالم كافكا الغريب الذى يترجم دائما إحساس الإنسان الخفى بالخطيئة والعزلة. . . .

ويصوره كطائر يطارده قفص حديدى، ليسجنه بين قضبانه، بينما هو يحاول جاهدًا الفرارْ منه، وربما كان لنشأته اليهودية فى أوروبا، فى بداية هذا القرن، أثر لهذا الإحساس، وزادنى شغفًا بأدبه قصة حياة الكاتب نفسه الذى لم ينشر من أدبه خلال حياته إلا أقل القليل، ولولا صديق مخلص له، آمن بأدبه، لما سمع العالم عنه شيئًا! . .

فلقد درس كافكا القانون ولم يستطع أن يعيش من التأليف وحده، فشغل وظيفة حكومية فى فيينا. . وعاش وحيدًا. . الكتابة عبادته كما قال عن نفسه فى مذكراته. . وكان شديد البطء والتدقيق فى الكتابة، ثم قدَّم بعض قصصه القصيرة للنشر فى الصحف فلم تلق قبولاً يُذكر، وقدم لأحد الناشرين كتابًا اسمه «التأملات» فنشره

له، وسعد كافكا كثيراً بصدوره واشترى منه ١٠ نسخ وزعها كهدايا على معارفه، ثم اتصل بالناشر بعد شهور يسأله عن مبيعات الكتاب فأبلغه أنه قد باع ١١ نسخة فقط.. فلم يتعجب كثيراً لكنه شغل نفسه بمحاولة أن يعرف من هو هذا القارئ الوحيد الذى اعترف بأدبه وأسف كثيراً لأنه لم يستطع اكتشاف شخصيته والتعرف عليه!

وواصل كافكا الكتابة لنفسه قبل الآخرين، ولم يكن يشاركه قراءتها والمناقشة حولها سوى صديقه المخلص «برود» ثم مرض بالسل ومات فى مصحة بالقرب من فيينا سنة ١٩٢٤، وعمره ٤١ عامًا، فعاهد صديقه نفسه على أن يُعرِّف العالم بأدبه وقدَّم قصصه ورواياته للنشر، ولم يحاول ادعاءها لنفسه فظهرت روايات «المحاكمة» و«القلعة» و«أمريكا» ومجموعاته القصصية الأخرى، فاهتم بها النقاد والقراء.. ثم ما لبثت أن لقيت رواجًا كبيرًا، وكف عالم الأدب عن إنكاره لموهبة كافكا وترجمت أعماله إلى معظم لغات العالم، فأكدت أسطورة هذا الأديب الغامض، مرة أخرى، أن العمل الجيد يفرض نفسه دائمًا ولو بعد حين.

* * *

رحل الكاتب البريطانى العظيم جراهام جرين عن عمر يناهز الثامنة والثمانين بعد حياة عريضة تنقل خلالها بين أركان الأرض الأربعة، ورحل أكبر أدباء أيرلندا شون أوفالين عن تسعين عامًا وشهرين، بعد حياة حافلة بالإبداع، وقبلهما رحل الكاتب العظيم

برنارد شو عن عمر يناهز التسعين، وكان يأمل فى أن يعيش حتى المائة ويعتقد أن العمر الطبيعى للإنسان ينبغى ألا يقل عن ٣٠٠ سنة وأن الجنس البشرى قادر بالمحاولة على أن يبلغ ذلك تدريجيًا!

وهناك كاتب معروف فى الأدب الفرنسى اسمه فونتونيل مات عن مائة سنة بالتمام، وكان منذ صباه حتى يوم رحيله يشرب ٥ أو ٦ فناجين من القهوة كل يوم، بالرغم من كل ما يقال عن أضرارها.. ومن أنها كانت السبب المباشر فى وفاة الأديب العبقرى الآخر بلزاك!

وتجاوز الكاتب البريطانى الشهير لورانس داريل مؤلف ـ رباعية الإسكندرية ـ السادسة والثمانين من عمره قبل أن تنطوى صفحته.

وقد توقف برنارد شو مرة أمام مفارقة تفاوت أعمار الكائنات الحية، فقال فى مقدمة إحدى مسرحياته: إنه لا أحد يعرف لماذا تتفاوت الأعمار فى النوع الواحد فيعيش فنان مثل لويجى كرنارو ستين سنة أطول مما عاش الرسام العظيم رافاييل أو الموسيقار العبقرى موزار، أو لماذا يعيش الببغاء عشرة أمثال عمر الكلب مثلاً. والغريب أن شو لم يؤمن كل هذا الإيمان بالحياة إلا بعد أن تجاوز الستين من عمره، وأما قبل ذلك فقد كان يطيل التفكير فى الموت وينشغل بكتابة وصيته فيكتبها ويعيد كتابتها عدة مرات كل سنة، حتى إذا بلغ الستين من عمره أهملها، ولم يعد يتذكرها وعاش ثلاثين عامًا لا يفكر خلالها إلا فى الحياة! أما الأستاذ العقاد فقد كان يقول إن هناك قاعدة

وضعها العلماء من خلال ملاحظة عالم الحيوان هى أن متوسط عمر الكائن الحى يساوى ستة أمثال الفترة التى يستغرقها نضجه، فإذا كان نضج الإنسان يتم فى حوالى عشرين سنة، فالمفروض أن يكون متوسط عمره ١٢٠ سنة، فإن لم يبلغها فإن ذلك قد يرجع لمخالفته سنن الطبيعة فى الغذاء والسكن وإلى الإسراف فى إنفاق قواه الجسدية والعقلية!

فما رأيك فى هذا الكلام؟ وهل أنت مستعد لأن تعيش عمرك «الطبيعى» وتبلغ العشرين بعد المائة؟

.. ورمضان كريم..



الرسم فوق النجوم!

قصاصتان من أوراق الصحف. إحداهما قديمة والأخرى حديثة. عثرت عليهما هذا الأسبوع فى ملف أوراقى الذى أحتفظ فيه بما يجذب اهتمامى فى الصحف والمجلات.. فأعدت قراءتهما، وتوقفت أمامهما متفكراً ومتأملاً.

أما القصاصة الأولى.. فلقد تعجبت كيف غابت عن ناظرى لأكثر من عامين ونصف العام، بالرغم من اهتمامى الشديد بها حين قرأتها لأول مرة.. وتساءلت: تُرى أين قرأت الصحيفة التى اقتطعتها منها؟!.. وكيف اختفت داخل أوراقى طوال تلك الشهور؟!

أغلب الظن أننى قد قرأتها وأنا خارج مصر.. لأن الصحيفة هى «التايمز» الإنجليزية، وأنا لا أتابعها بانتظام إلا حين أكون على سفر، أما فى مصر ـ ومع زحام العمل، وتلال الجرائد والمجلات العربية التى لابد لى من أن ألقى عليها نظرة متفحصة على الأقل كل يوم، إن لم أقرأها كلها ـ فلست أتابع من الصحف الأجنبية إلا صحيفة «الهيرالد تربيون» الأمريكية.. فلابد إذن أننى كنت وقتها فى باريس فى رحلتى السنوية إليها، لأن تاريخ العدد الذى وجدته على القصاصة هو ٣٠ يونيو ١٩٩٨، وهو موعد الإجازة بالنسبة لى.. ولابد أننى قد اشتريتها من كشك الصحف القريب من مقهى جورج ساندك بشارع الشانزليزيه لأقرأها على مَهَل، مع رشفات القهوة الفرنسية الممتعة ذات صباح إلى أن يلحق بى أحد الأصدقاء المقيمين هناك.

فماذا استوقفنى فيها، ودفعنى لأن أقصها من الصحيفة، وأحملها معى فى رحلة العودة إلى مصر؟!

إنها تحمل صورة رجل مسن يجلس على ركبتيه أمام سيدة فى

مثل عمره أو تزيد، وينظر إليها فى حب ظاهر وتنظر هى إليه فى حنان يشع من نظرتها، وتحمل ملامح وجهيهما معًا كل معانى الرضا والابتهاج والاطمئنان والاحتماء بصحبة الرفيق من أنواء الحياة وأما القصة التى تصاحبها فتروى عن رحيل هذا الرجل عن الحياة عن عمر يناهز ٨٧ عامًا إثر أزمة قلبية مفاجئة.. وبعنوان يثير التأمل هو: «الرحيل بسبب انكسار القلب»!

يشدنى العنوان لقراءة القصة من جديد فأستعيد أحداثها.. و«أتذكر» السبب الذى دفعنى للاهتمام بها.. فالرجل هو زوج الروائية الإنجليزية الشهيرة كاترين كوكسن.. ولقد مات بعد ١٨ يومًا فقط من رحيلها هى عن الحياة عن عمر يناهز ٩١ عامًا!

ولقد رحلت عن الدنيا ـ كما تروى القصاصة ـ فى سلام، ويدها فى يد زوجها يشد عليها فى رجاء، كأنما يناشدها ألا تتركه للوحدة وفراغ الحياة بعدها..

فما أن غربت شمس حياتها ـ بعد طوال إشراق ـ فى ١١ يونيو ١٩٩٨ وانتهت مراسم الوداع حتى سقط الرجل مريضًا، وتدهورت حالته الصحية سريعًا، فنقل إلى المستشفى ورحل عن الحياة.. وقال أقرب الأصدقاء إليه وإلى زوجته الراحلة لمحرر الصحيفة: إنه لم يمت بالمرض.. وإنما بانكسار القلب حزنًا على رفيقة العمر.. فلقد كانت هى كل «أسباب الحياة» بالنسبة إليه، وحين ماتت لم يعد لديه ما يدفعه لأن يحيا من أجله!

وأستغرق فى قراءة القصة من جديد، فأجد هذين الزوجين قد عاشا معًا متحابين متعاطفين، يشد كل منهما أزر الآخر ٤٨ عامًا.. وأعرف أنهما قد تقابلا لأول مرة فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن حين جاء الرجل إلى المدينة الصغيرة التى تقيم فيها السيدة «الشابة» وقتها ليعمل مدرسًا للرياضيات بالمدرسة الثانوية.. وراح يبحث لنفسه عن سكن مفروش مع إحدى الأسر، فقادته قدماه إلى بيت هذه السيدة.. وأقام لديها.. ولم تكن وقتها قد بدأت كتابة القصص والروايات، وإنما كانت تدرس الأدب.. فسرعان ما تآلفا وتمازجا، حتى أصبحا صديقين متلازمين لايفارق أحدهما الآخر إلا لضرورة العمل القصوى.. وسرعان ماتزوجا فى عام ١٩٤٠، وعاشا حياة دافئة بالحب والعطف والعطاء المتبادل، بالرغم مما اعترضهما من محن وآلام وأحزان.. فلقد فقدت الزوجة الشابة خلال ٥ سنوات من الزواج ثلاثة أطفال رضع أنجبتهم تباعًا، ولم يصمدوا لأنواء الحياة، بسبب مرض الدم الوراثى الذى انتقل إليهم منها..

وبعد رحيل الطفل الأخير يئسا من معاودة الإنجاب مرة أخرى.. واستسلمت الزوجة لنوبة من الاكتئاب الشديد لازمتها ١٥ عامًا كاملة!.. ووقف إلى جوارها فيها زوجها المحب، وأعانها على مقاومتها والشفاء منها.. وشجعها على أن تبدأ الكتابة القصصية مؤكدًا لها موهبتها الأدبية، وراح يحثها كل يوم على أن تكتب

وتنشر ما تبدعه من قصص لم يكن لها فى البداية من قارئ سواه!.. حتى نجت من أخطبوط الاكتئاب.. وذاع اسمها، وأصبحت أكثر الروائيين الإنجليز الذين يقبل عليهم القراء، وتوزع كتبها بملايين النسخ، وتحول ١٣ كتابًا منها إلى أفلام ومسلسلات تليفزيونية.. وحققت شهرة طاغية وثروة هائلة.. وقال النقاد الذين أرّخوا لها: إنه لولا أن شجعها زوجها العطوف على احتراف الكتابة لكانت قد أصيبت بانهيار عقلى، أو انتحرت من جراء مرض الاكتئاب المزمن! وقال الأصدقاء المقربون: إنه قد وقف إلى جوار زوجته يُمرِّضها ويرعاها خلال محنة الاكتئاب، ثم فى خمس أزمات قلبية شديدة أصيبت بها بعد ذلك خلال رحلة العمر، وحين أجريت لها جراحة خطيرة قبل سنوات.. وفى كل هذه الأزمات كان هو اليد الحانية التى تربت على كتف زوجته، والابتسامة المشجعة لها على احتمال الأحزان والآلام، والحصن الذى تحتمى به من المخاوف والأخطار.. فلا عجب إذن فى أن يقول الأصدقاء المقربون بعد رحيله عن الحياة: إنه بعد وفاتها لم يعد راغبًا سوى فى أن يكون «معها» حيث ذهبت!

يا إلهى!

لماذا لا نقرأ كثيراً عن مثل هذه الصحبة المخلصة التى يتبادل فيها شركاء الحياة العطف والحب والعطاء.. وتُرى ماذا كان «عمق» نبع الحب الذى تفجر فى قلب هذا الرجل تجاه زوجته، فظل «ينزح» منه

ويعطيها هذا العطاء المتدفق على مر السنين دون أن ينضب أو يجف؟!

وتُرى ما هو «غور» بئر الحب والعطف والامتنان الذى فاض من قلب هذه السيدة على شريكها.. فتمازج ماؤهما معًا واتحدا وحفرا مجرى هذا النهر الدافق من ماء الحياة العذب؟!.. أليست هذه حقًا هى الصحبة التى تطيل العمر، وتؤخر الشيخوخة، وتقاوم عوامل الزمن، وتقهر أسباب الموت والشقاء؟!

ولماذا يُكثر الكتّاب من الكتابة عن المشاهير والعظماء الذين شقوا بزوجاتهم وحياتهم العائلية ـ من سقراط إلى نابليون إلى تولستوى إلى الشاعر الإنجليزى ميلتون.. الخ ـ وعن الشهيرات اللاتى تجرعن التعاسة فى حياتهن الخاصة.. ولا يكتبون لنا بالمثل عمن كانت حياتهم سيمفونية جميلة من أنغام الحب والوفاء والعرفان.. كهذين الزوجين؟!

وهل أدركت الآن ياصديقى لماذا اجتذبتنى هذه القصة فقصصتها من الصحيفة فى باريس، ورجعت بها إلى مصر منذ أكثر من عامين؟!

أما القصاصة الثانية فلقد اقتطعتها من صحيفة أخرى قبل أسبوعين، وأعدت قراءتها أكثر من مرة.. وأثارت فى نفسى تأملات طويلة وأشجانًا عديدة.. وكان بحثى عنها وأنا أستعد لأن أكتب لك

هذا المقال هو سبب عثورى على القصاصة القديمة، فعجبت لما يربط بينهما من معان وأفكار، بالرغم من اختلاف الظروف! إنها رسالة بثها على شبكة الإنترنت قبل أسابيع الأديب الكولومبى العالمى «جابرييل جارسيا ماركيز» «٧٢ عامًا» الحاصل على جائزة نوبل، ومؤلف الرواية الشهيرة «مائة عام من العزلة».. وقد بدت فى كلماتها الموحية بالشجن وكأنها رسالة وداع يبعث بها لأصدقائه وتلاميذه وقرائه المنتشرين فى أنحاء العالم، بعد تدهور حالته بسبب المرض اللعين فى الدم والرئتين.. واستشرافه لقرب النهاية.. فهل تريد أن تعرف ماذا قال فيها؟!

إنه يقول:

«لو وهبنى الله «قطعةً أخرى» من الحياة لما كنت سأقول ـ فى هذه الفترة الإضافية من العمر ـ كل ما أفكر فيه.. وإنما كنت سأفكر فى كل ما أقوله قبل أن أنطق به.

ولكنت سأنام قليلاً وأحلم أكثر، مدركًا أننا نخسر مقابل كل دقيقة نغمض فيها عيوننا ستين ثانية من الضوء..

ولكنت أستمتع بكأس الجيلاتى وأرتدى لباسًا بسيطًا، وألقى بنفسى إلى الشمس، وأعرى روحى كلها تحت أشعتها.

ولكنت قد كتبت أحقادى كلها على قطع من الثلج، وانتظرت طلوع الشمس لكى تذيبها.

· ولرسمت فوق النجوم وأهديت القمر سرينادا غنائية وغسلت الزهور بدموعى. .

ولما تركت يومًا واحدًا يمضى دون أن أبلغ الناس فيه أننى أحب «فكرة» أن أحبهم، ولأقنعت كل رجل أنه المفضل عندى، وكل امرأة بأنها الصديقة الأولى. .

ولكنت أكدت للرجال أنهم يخطئون حين يظنون أنهم يكفون عن الحب حين يطعنون فى العمر. . لأنهم لا يشيخون حقًا إلا حين يكفون عن الحب!

ولكنت أعطيت للطفل أجنحة وعلَّمته كيف يطير بها، وأكدت للمسنين أن الموت لا يأتى مع التقدم فى العمر. . وإنما مع النسيان!

لقد تعلمت أن الطفل الوليد حين يقبض بكفه الصغيرة على أصبع أبيه ويشده لأول مرة فإنه يكون قد ربطه به برباط أبدى!

آه. . لقد تعلمت من الناس أشياءً كثيرة. . غير أنى للأسف حين أكتبها على قصاصات وأضعها فى محفظتى لكى أعمل بها. . سيكون الأوان قد فات، وسأكون قد غادرت الحياة بطريقة غير سارة!».

تُرى. . هل أدركت معى أن ما يجمع بين هاتين القصاصتين ـ بالرغم من اختلاف الأحوال ـ هو أن السعادة فى النهاية ممكنة. .

ولكن لو تعلم الإنسان فقط كيف يحيا الحياة، وأدرك أن حب الحياة والناس والأشياء والمعانى الجميلة الراقية، هو الطريق إليها، وكذلك لو سما بنفسه عن الصغائر والصراعات والأحقاد؟!.

إن هاتين القصاصتين تقولان لنا بطريقة غير مباشرة: إن «الرسم فوق النجوم»، كما يحلم بذلك ماركيز لو امتد به العمر، ممكن بالفعل.. ولكن بشرط أن يحظى الإنسان بفهم أفضل للأمور كفهم ماركيز لها وهو يتسمع للأسف أنغام الرحيل، أو بصحبة رضية هانئة مخلصة كصحبة الزوجين «كوكسن» فى تلك القصة الجميلة!



الكتابة بلسع الألم!

أكتب مقالى هذا بيد واحدة!

تسألنى: وهل يكتب الكاتب بيديه الاثنتين؟

فأجيبك بأنه يكتب بيد واحدة فى العادة..

ولكن يده الأخرى تكون عوناً له خلال الكتابة..

تفتح له هذا الكتاب على الصفحة التى يريد الاستشهاد ببعض ماجاء فيها فى مقاله.. ترفع كوب الماء إلى فمه إذا شعر بالعطش.. تقرب منه فنجان القهوة، ليرتشف منه رشفة بغير أن يضع القلم من يده الأخرى، ناهيك عن اعتصار الجبهة باليد الطليقة إذا اشتد به التفكير، أو هرش مؤخرة الرأس لتنشيط الأفكار إذا شعر بخمولها وكلها وظائف حيوية، لا تدخل فى فعل الكتابة نفسها لكنها تعين عليها.. ولقد حرمت منها كلها حين بدأت هذا المقال بسبب قلة الاحتراس وسوء التقدير! فأنا أكتب هذا المقال فى قرية صغيرة تبعد عن باريس حوالى ٦٠ كيلو مترًا.. وقد بدأت الاستعداد للكتابة بالطواف على محالها، باحثًا عن زجاجة حبر باركر، فأنا من كتَّاب العصر الحجرى الذين لا يزالون يرتبطون بعادات معينة، لا تلين لهم أفكارهم فى الكتابة بغير الالتزام بها، منها الكتابة بالحبر فى زمن كاد الحبر ينقرض فيه من أقلام الكتَّاب، وعلى ورق أصفر مسطَّر يتحفنى أصدقائى المقيمون خارج مصر بكميات كبيرة منه، كلما رجعوا إلى بلدهم، أو كلما وجدوا زميلاً مسافرًا يُحمّلونه هذه الهدية ثقيلة الوزن إلىّ.. ولقد طفت بمحال القرية الصغيرة، باحثًا عن زجاجة الحبر المنشودة فلم أعثر عليها.. وسألت سيدة فرنسية فى الطريق عن مكتبة أستطيع شراءها منها.. فهزت رأسها فى دهشة، وقالت لى إنه كانت هناك مكتبة واحدة فى القرية، لكنها أغلقت أبوابها منذ عامين.. وسألت جارسون المقهى ـ الذى اخترته من اليوم الأول

لإقامتى فى القرية ليكون «مكتبى» الصباحى. . حيث أمضى فيه فترة الصباح مستمتعًا بشرب القهوة، وتأمل الغادين والرائحين، والتلذذ «بالفراغ السعيد» على حد تعبير أستاذنا نجيب محفوظ فى إحدى قصصه، فأرشدنى الجارسون إلى سوبر ماركت كبير يقع على مسافة عشرة كيلو مترات من القرية ويعرض كل الأشياء من الإبرة إلى الصاروخ كما يقولون. . فشددت الرحال إليه، وتهت طويلاً فى «شوارعه» الداخلية وممراته، حتى عثرت على قسم الأدوات المكتبية، ودققت النظر فى رفوفه فلم أجد زجاجة حبر واحد، وإنما وجدت خراطيش الحبر الصغيرة المصنوعة من البلاستيك والتى تُركب داخل أقلام البقية الباقية ممن يستخدمون الحبر السائل فى أعمالهم فاشتريت كمية منها ورجعت إلى الشقة الصغيرة التى أقيم فيها. . وأحضرت كوبًا صغيرًا وبدأت كفاحى لإفراغ محتوى هذه الخراطيش الصغيرة فى الكوب لأصنع منها زجاجة حبر أستطيع ملء القلم منها. . ولعنت وأنا أبدأ «ذبح» أول خرطوشة اللحظة التى عذلت فيها فى القاهرة عن وضع زجاجة حبر فى حقيبتى خوفًا من أن تنفتح خلال رحلة الطائرة وتلوث ملابسى. . مع أننى كثيرًا ما حملت مثل هذه الزجاجة معى إلى شتى أنحاء العالم خوفًا من ألا أجد نوعى المفضل من الحبر عند الكتابة. وبدأت أمسك بالخرطوشة الصغيرة فوق الكوب وأجز طرفها السفلى بصعوبة لكى يدخل تيار الهواء إلى الأنبوبة ويدفع مابداخلها من حبر إلى الكوب. . فتتساقط بضع

قطرات أكثرها على يدى وأقلها فى الكوب، ثم أطوح بالخرطوشة الفارغة فى صفيحة الزبالة وأمسك بغيرها، وهكذا بضع عشرة مرة، حتى تجمَّع فى الكوب بعض الحبر السائل مختلطًا بقطرات من دم إصبع يدى اليسرى.. وعدت إلى المائدة التى سأكتب عليها بالكوب يراودنى الإحساس «بالانتصار» على هذه المشكلة الطارئة ممتزجًا بشىء من الألم لجرح إصبعى، واتجهت إلى البوتاجاز لأرفع غلاية الماء الساخن وأفرغه فى البرَّاد المعدنى الجديد الذى اشتريته من بقال باكستانى لأصنع الشاى مشروبى المفضَّل خلال الكتابة، فأذهلنى ألم الجرح عن الاحتراس لسخونة البرَّاد المصنوع من مادة رقيقة حديثة تستخدم الآن فى صنع مفاتيح المساكن لكى يخف وزنها ولا تثقل الجيوب.. فسرت سخونة الماء المغلى إلى يدى اليسرى الجريحة وأضافت إليها ألم اللسع الحارق.. وتركت البرَّاد يسقط على الأرض وهرولت إلى الثلاجة أضع يدى الملسوعة داخلها بعض الوقت لأخفف عنها الألم.. ثم أخرجت زجاجة ماء مثلجة وأفرغتها على يدى حتى كادت تتجمد من أثر برودتها.. وخفَّ الألم قليلاً لكنه لم يلبث أن عاد مرة أخرى واستمر..

وجلست لأكتب بيدى اليمنى.. ويدى اليسرى مرفوعة من الخدمة.. وكل بضع دقائق يشتد علىَّ ألم اللسع فأنهض إلى حوض المطبخ وأفرغ عليها بعض الماء المثلج، ولا تسلنى ولماذا لم تضع عليها مرهمًا للحروق فيخف الألم بعد قليل؟! فلقد قلت لك من البداية

إننى أكتب فى شقة خالية فى قرية بعيدة فى باريس ولا أعرف أحداً فيها وليس بالقرب منى من أستفيد بخبرته فى مثل هذا الأمر الطارئ. . ونزولى للشارع لأبحث عن صيدلية سوف يعطلنى عن الكتابة التى لابد من الانتهاء منها الآن لأرسل مقالى بالفاكس من مكتب الأهرام فى باريس وإلا فاته موعد الطبع فى القاهرة. .

والشاعر الصوفى القديم يقول:

وكيف يؤمِل راحةً مَنْ عمرُه

يومان يوم قِلى ويوم تناء

و«القلى» هو الهجر أو المجافاة. . و«التنائى» هو البعد.

وأنا «مهجور» أو مهاجر بصفة مؤقتة إلى هذه القرية الصغيرة لأستريح فيها لفترة قصيرة من عناء العمر وشقاء العمل. . وقد اخترت أن أبدأ رحلتى هذا العام بالانعزال فى هذه القرية لبضعة أيام ألتقط فيها أنفاسى بعض الوقت قبل أن أنتقل إلى صخب العاصمة وارتباطاتها، وأمضيت معظم وقتى فيها حتى الآن فى النوم والجلوس فى «مكتبى الصباحى» بالمقهى القريب أشرب القهوة وأفكر فى اللاشىء، وفى قراءة أو إعادة قراءة كتابين من أحب الكتب إلى نفسى وكثيرا ما صحبتهما معى فى رحلاتى الخارجية، الأول هو كتاب «كناسة الدكان» للأديب الحبيب إلى قلبى يحيى حقى وهو سيرة ذاتية له وتأملات عميقة وبديعة فى أحوال الدنيا والفكر

والبشر، والآخر هو «التكوين» لمجموعة من المفكرين والأدباء المصريين، يروى فيه كل منهم قصة حياته والمؤثرات التى أسهمت فى تكوينه الأدبى والنفسى والفكرى، لايربطنى بالعالم الخارجى سوى التليفون المحمول.. حيث تخلو الشقة التى أقيم فيها من تليفون عادى.. ولولا ضرورة الاتصال بزملائى فى مجلة الشباب لأتابع معهم وضع اللمسات الأخيرة لهذا العدد.. لما احتجت إليه، وقد حصلت على الاشتراك المؤقت فيه فى اليوم الأول لوصولى إلى فرنسا من محل بشارع الشانزليزيه سبق لى أن تعاملت معه فى العام الماضى. دخلت المحل.. قلت للبائع الشاب: أريد اشتراكًا مؤقتًا فى التليفون المحمول خلال وجودى فى فرنسا. ابتسم فى وجهى وأخرج استمارة صغيرة من أصل وصورة سجل فيها اسمى.. ورجانى التوقيع فى ذيل الاستمارة فوقَّعت.. ثم طلب منى ٢٦٧ فرنكا فرنسيا (حوالى ١٣٤ جنيهاً مصريًا) فدفعت ثم أعطانى علبة صغيرة فتحتها وأخرجت منها شريحة التليفون الإليكترونية الدقيقة ووضعتها فى جهازى المحمول بدلاً من شريحتى المحلية فأصبح لدىّ تليفون محمول صالح للعمل فى فرنسا لمدة عشرة شهور بلا عقود.. ولا إجراءات.. ولا تقديم فواتير للكهرباء أو صور للبطاقات الشخصية.. إلخ. وقديمًا قيل إنه كلما ازدادت سهولة الحياة فى مجتمع ما، كلما انقرضت منه الإجراءات المعقدة تدريجيًا.. فعقبى لمجتمعاتنا والبشر الذين يعانون فيها من صعوبة الأشياء.

والشاعر القديم «هوراس» قد قال ذات يوم ناصحًا شعراء زمانه:

ليس لكاتب أن يستثير بكاء الآخرين مالم يكن هو شخصيًا قد بكى!.

ولقد تذكرته قرب اختتامى لهذا المقال ـ إذ احتجت لكوب آخر من الشاى فسخنت الماء وواصلت الكتابة.. ثم نهضت لإفراغه فى البرَّاد فنسيت للمرة الثانية خفة المادة المصنوع منها ولسعنى من جديد فى نفس اليد التى لم تبرأ بعد من ألمها.. لسعة أشد من الأولى حتى صرخت من الألم والغيظ فى نفس الوقت لاعنًا الغباء.. والأغبياء!.. إذ لا عذر لمن لُسع من قبل من برَّاد.. فى أن يُلسع منه مرة أخرى مهما تكن مادته المصنوع منها رقيقة وفى وزن الورقة، وإلا فأين درس التجربة.. وأين الاستفادة من عثراتنا السابقة فى تجنب أشواك الحياة؟ ومن هو الحكيم الذى قال: إذا خدعنى إنسان مرة فليسامحه الله.. وإذا خدعنى مرتين فليسامحنى أنا الله؟

لقد سامحت البرّاد اللعين حين لسعنى أول مرة.. فكيف أسامح أنا نفسى حين «كوانى» فى المرة الثانية.. وجدّد التهابات اليد الجريحة؟

ومقالى هذا لم أقصد به استثارة بكاء الآخرين.. فكيف إذن أقنع نفسى بأننى قد أوشكت أن أبكى من الألم مرتين.. لكى تكون الكتابة مُعبرة بصدق عن «آلام البشر»؟

ولقد بدأت هذا المقال على عكس معظم مقالاتى وليست فى ذهنى فكرة محددة أعتزم الكتابة عنها.. ولا أعددت له المادة التى سأستعين بها على كتابته كما أفعل فى كل مقالاتى، بل لقد كنت معتزمًا أن أكتب حلقة جديدة عن ذكريات الصبا والطفولة التى أسميها «حكايات شارعنا» مستعينًا بهدوء الحياة فى هذه القرية الفرنسية على استعادة الذكريات واسترجاع صور الماضى البعيد فإذا بتجربتى الجرح واللسع تجرفانى بعيدًا عن هذا الهدف.. وإذا بى أتساءل الآن: بدأنا المقال بما أملته علينا «الحوادث» فكيف ننهيه إذن؟.. ولماذ أتذكر الآن الشيخ الرئيس ابن سينا الذى شهدت حياته تقلبات عديدة بين العلم والسياسة فنُفى مرة وسُجن مرة خلال صراع السلطة بين شمس الدولة البويهى وبين علاء الدولة البويهى، وتقلّد الوزارة مرتين وقد أنشد حين دخل سجنه لأول مرة:

دخولى باليقين كما تراه

وكل الشك فى أمر الخروج!

أى أن «المؤكد» هو أنه قد دخل السجن، أما الخروج منه فمشكوك فيه.

وكذلك الحال فى هذا المقال.. الذى بدأته «باليقين» كما رأيت «وكل الشك» فى أمر الخروج منه!

فهل عندك فكرة مناسبة لاختتامه؟

أم ترى هل تتجاوز ـ كرمًا منك وفضلاً ـ عن ضرورة اختتامه بخاتمة منطقية تتناسب مع بدايته.. تقديراً منك «لظروفى» و«غربتى».. و «وحدتى» فى هذه القرية الفرنسية الصغيرة.. وتلهفى على إنهاء المقال لكى ألحق بموعد المقهى القريب قبل أن يزدحم بالروّاد.. ويقل مرور المارة أمامه.. وتأملهم ومراقبة أحوالهم ـ كما تعلم ـ هما سلواى ومتعتى فى هذه الأجازة القصيرة «المسروقة» من جفاف الأيام!





كشف حساب

عدت إلى بيتى تلك الليلة متأخراً كعادتى، والساعة تقترب من الثانية صباحاً. وضعت حقيبتى الجلدية فى مكانها التقليدى بجوار المكتب، وتسللت ـ فى حرص ـ إلى غرفة النوم، وخلعت ملابسى فى الظلام، محاذراً أن يصدر عن حركتى صوت ينبه النائمين من نومهم.

وارتديت «البيجامة» والروب المنزلى. . وبحثت عن «الشبشب» فى عتمة الغرفة، حتى وجدته، وغادرت الغرفة، وأغلقت بابها ورائى برفق.

اتجهت إلى المطبخ، ووضعت برَّاد الشاى فوق النار، وتناولت عشائى الخفيف واقفًا بجوار الموقد فى انتظار الشاى.

لاحظت خلال الفترة الأخيرة ضعف شهيتى لكل أنواع اللحوم والدواجن والأسماك بلا استثناء، بل وضيقى أيضًا بمذاقها إذا أرغمتُ نفسى على تذوقها، وفسرت هذا الزهد المفاجئ بأن النظام الغذائى الذى ألتزم به منذ حوالى ست سنوات قد يكون مسئولاً عن ذلك. . . فأنا أتناول الطعام بلا أى دسم من أى نوع، ولا أتناول من أنواع البروتين سوى شريحة صغيرة من لحم البتلو، أو صدر الدجاج، فوجدت نفسى بعد طول الاعتياد على ازدراد هذا الطعام الذى لا طعم له؛ أزهد تدريجيًا فى كل اللحوم والدواجن والأسماك، وأكاد لا أطيقها، وخيل إلىّ أننى أمضى بخطوات حثيثة فى طريقى لأن أصبح إنسانًا نباتيًا، لا يأكل إلا مما أخرجته الأرض من ثمراتها. ولم أنزعج لذلك. . . فلقد قرأت كثيرًا عن النباتيين، وكيف استطاعوا أن يستغنوا فى حياتهم عن أكل اللحوم، ويحتفظوا ـ رغم ذلك ـ بحيويتهم وصفاء أذهانهم حتى نهاية العمر، ومن أشهرهم عندى: الأديب الأيرلندى العظيم برنارد شو، الذى كان

يكره اللحوم كراهية التحريم، وينفر من أن يُنشب الإنسان أنيابه فى لحوم غيره من الكائنات الحية، ومع ذلك. . . فلم يكن يفرض طعامه النباتى على ضيوفه، ولم يكن يمانع فى أن يقدم إليهم على مائدة الطعام دجاجة مقتولة «غيلة» على حد تعبيره!، كما كان يحب أيضًا الزهور، لكنه يأنف من «قتلها» وقطعها من أشجارها، لكى يستمتع الإنسان بمنظرها ورائحتها بضع ساعات تموت بعدها. وقد لاحظ أحد الصحفيين خلو منزله من أى «فازة» للورود، رغم غرامه بالزهور، وسأله عن ذلك، فأجابه بسخريته اللاذعة: لا عجب فى ذلك. . فإننى أيضًا أحب الأطفال، لكنى لا أقطع رؤوسهم لكى أضعها فى فازة!

وقد سمعت أيضًا عن بعض من يحرصون على أن يعتمدوا فى غذائهم على ما يسمونه بالطعام القرآنى، أى الطعام الذى ورد ذكره فى القرآن كاللبن، والعسل، والعدس، والثوم، والقثاء، والفول، والبقول، إلخ. . . . ويرون فيه أفضل أنواع الطعام، وأكثرها فائدة صحية، لكنى لا أستطيب منها للأسف سوى منتجات الألبان وحدها، ولا أذوق اللبن نفسه، ولا أحتمله، أما العسل، فقد كنت أتناوله بانتظام، حتى عرفت أن الإكثار منه يتعارض مع برنامجى الغذائى لتخفيض نسبة الكوليسترول فى الدم. وحين لاحظتُ على نفسى زُهدى فى اللحوم بكل أنواعها، استسلمت فترة لوهم الاعتقاد

المريح أننى أتجه تدريجيًا إلى مرحلة جديدة من «السمو الروحى» الذى يتحقق فيه صفاء الذهن. . وانطلاق الروح من قيودها ورغائبها إلى آفاق عليا!، فإذا بزميلة تصدمنى منذ أيام بقولها لى إنها قد سمعت طبيبًا كبيرًا يقول فى التليفزيون أنه إذا لاحظ الإنسان على نفسه نفورًا غير مفهوم له من تناول اللحوم والدواجن، فعليه أن يعرض نفسه على الطبيب، ليتأكد من سلامة الكبد والمرارة عنده، لأن هذا الزهد المفاجئ فى اللحوم قد يكون من الأعراض المبكرة لبعض متاعب الكبد والمرارة!. . . فأنزلتنى بذلك هذه الزميلة من آفاق «السمو الروحى» العالية إلى هاوية المخاوف المرضية السحيقة، وفكرت جديًا فى استشارة الطبيب فى أمرى!.

حملت الشاى إلى مكتبى. . وجلستُ أراجع بروفات كتاب جديد لى يصدر فى يناير. واستغرقتنى المراجعة حوالى ساعتين، ثم طويت الصفحات، وقاومت رغبتى فى كتابة بعض الالتزامات الصحفية، وراغمت نفسى على دخول فراشى «مبكرًا» لأحاول النوم، استعدادًا لليوم الطويل الذى ينتظرنى فى الغد. . فغدًا يوم الأربعاء، وهو يوم الاحتجاب الأسبوعى، الذى أنقطع فيه عن الذهاب إلى عملى، وعن كل مشاغل الحياة الأخرى، لأقرأ رسائل المهمومين، وأكتب باب بريد الجمعة. وهو يوم طويل حقًا، يبدأ من ظهر الأربعاء، ولا ينتهى إلا ظهر الخميس، حين يجىء مندوب من الأهرام ليتسلم منى

مقالى، فأسلمه له، وأخرّ صريع الإجهاد، وقلة النوم حتى المساء. وقد لاحظت بعد سنوات من الممارسة و التكرار أننى أنهض من نومى صباح الأربعاء شبه مكتئب نفسيًا، بلا سبب واضح، اللهم إلا ترقبى لما ينتظرنى فيه من عناء ثقيل.

قرأت فى فراشى بعض الوقت، ثم سقط الكتاب من يدى، واستسلمت للنوم، آملاً ألا أصحو منه قبل الظهر. وكثيراً ما حلمت - وفى ليلة الأربعاء بالذات - «بنوم المغفلين» الذى يقصده المثل الإنجليزى الذى يقول: ست ساعات كافية لنوم الرجل، وسبع للمرأة، وثمانٍ للمغفل!، فتأبى الظروف إلا أن تحرمنى من نوم «المغفلين»، معَ أنى طالما استمتعت به، وبأكثر منه فى شبابى!.

هل نمت على الفور؟ هل حلمت بشىء؟ هل تنبهت من نومى بعد لحظات كعادتى، وراغمتُ نفسى على محاولة النوم من جديد؟.

لست أذكر شيئًا من ذلك، لكنى أحسست شيئًا آخر غريبًا، هو أننىْ أهتز بعنف، وبأن الفراش يهتز بى ومعى.. فهل يهزنى أحد بشدة لكى أستيقظ من النوم؟... لكن لماذا يهزنى بهذه الطريقة العنيفة، وأنا أتنبه بسهولة لمحاولات إيقاظى؟. لا، ليس الأمر كذلك.. إننى أركب سفينة تتمايل بى للأمام وللخلف، وتتلاعب بها الأمواج، فمتى ركبتُها؟ ومن أى ميناء؟. هل أنا صاحٍ مستيقظ،

أم نائم يحلم؟، ولماذا أشعر وكأنى معلق فى الهواء، ولست مستقراً فوق سطح ثابت؟.

فتحت عينى مرتعبًا، فإذا بى أرى زوجتى جالسة فى الفراش منزعجة.. ونجفة غرفة النوم تتأرجح بشدة، والفراش يميد بى أمامًا وإلى الخلف، كأنه قارب فى نهار، يا إلهى.. إنه ليس حلمًا مخيفًا.. بل الزلزال المفزع.. فأين المفر يا ربى.. أين المفر؟ ماذا ينبغى للإنسان أن يفعل فى هذه اللحظة؟ أين تركيز العقل والذهن لكى يستعين به على مواجهة أقداره؟ لا شىء من ذلك.. ولا شىء سوى الجهر بالشهادة، وترقب ما سيلى اللحظة من أهوال.

لقد ذهبت الحيلة.. فلا حيلة.. ولم تبق إلا مواجهة الأقدار.. فكيف ستكون يارب الخطوة التالية؟ أهى ركام وحطام وسباحة مرعبة فى الهواء، ثم سقوط مدمر من حالق فوق الأنقاض؟ وكيف سيكون ألم الارتطام، ووقع تكسر العظام؟ أهكذا تجىء النهاية يارب، ودعائى لك آناء الليل وأطراف النهار من دعاء بعض الصالحين:

- رب هبنى حياةً بلا مهانة.. وموتًا بلا مساءة.. وقيل فى تفسيره أنه الموت بلا ألم ولا عذاب.. فأى عذاب أشد يارب من هذا العذاب؟. تذكرت فجأة ابنى وابنتى؛ فنهضتُ مذعوراً من الفراش، وأنا أصيح فى زوجتى: هيا، وخرجت إلى الصالة لأبحث

عن ابنىْ، فإذا بهما واقفان فيها، وآثار النوم فى عيونهما.. وشحوب الهول فى وجهيهما.. ماذا تنتظران؟ هيا.. هيا، واتجهنا إلى باب المسكن، وفتحنا الباب ونحن لا ندرى ما نفعل.. فإذا برجال ونساء يهرولون على السلالم بملابس النوم، والفزع يسوقهم، وأفواههم لا تنطق إلا بعبارة التوحيد.. ولفظ الشهادة.. الجميع.. الجميع بلا استثناء ينزلون السلم ويهتفون: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله)، كأنما (يسيرون) فى موكب جنائزى يمضى إلى مصيره المعلوم.

وخطونا على السلالم بضع خطوات، كأنما لم نستفد شيئًا من تجربتنا الأولى مع زلزال أكتوبر ١٩٩٢، ولم نتعلم شيئًا من إرشادات الأمان التى حذرتنا من هبوط السلم، أو ركوب المصعد، أو الخروج إلى الشرفات فى وقت الهول. لم نتعلم شيئًا بالفعل.. ولم نحذر شيئًا، إنما فررنا بلا حذر من قضاء الله.. إلى قدره، وتركنا أنفسنا لما تجرى به المقادير، فلاحقتنا صيحات الأمان من بعض سيدات العمارة تطالبنا بالعودة.. فقد توقف الزلزال!. نعم توقف الزلزال.. ولاتزال العمارة قائمة بحمد الله.. ولا نزال أحياءً نتنفس ونلهث، فرجعنا إلى مسكننا بعد لحظات، خُيل إلىَّ أنها سنوات. وتنبهتُ إلى أن ابنتى تبكى، وابنى يمسك برأسه ويشكو من صداع قاتل، لعله من أثر الخوف، فاحتضنتهما، محاولاً أن أهدئ من روعهما، وأدركتُ

فيما بعد أننى كنت أقول لهما بغير وعى: اشكروا الله .. اشكروا الله.. فنحن مانزال أحياء.. نحن مانزال أحياء!.. فهل الموت مخيف حقًا إلى هذا الحد؟، وهل خطايانا ثقيلة فى الميزان إلى الحد الذى نفزع فيه هكذا من اقتراب ساعة الحساب؟.

لقد قرأت فى بعض الكتب أن الإمام أبا حامد الغزالى نهض من نومه صباح يوم اثنين، فتوضأ وصلَّى، ثم طلب كفنه، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال: سمعًا وطاعة للدخول على الملك، ثم مدّ رجليه، واستقبل ـ أى توجه برأسه ناحية القبلة ـ وانتقل إلى رضوان الله تعالى !.

وأذكر أننى حين قرأت ذلك نقلاً عن كتاب «الثبات عند الممات» لابن الجوزى أننى قلت لنفسى وقتها: هكذا يموت الصالحون، فهم حقًا من لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

لكنى قرأت بعد ذلك أيضًا أنه حين حضرت الوفاة العابد القانت أمير المحدثين أبا سُفيان الثورى، جزع جزعًا شديدًا، وهو مَنْ هو تقىً وصلاحًا، فقيل له: يا أبا عبد الله.. ما هذا الجزع؟. ألست تذهب إلى من عبدته وفررت ببدنك إليه؟، فقال: ويحكم.. إننى أسلك طريقًا لم أعرفه، وأقدم على ربٍ لم أره.

فتساءلت منزعجًا: وكيف إذن بأمثالنا ممن ثقلت الأرض بخطاياهم، وضعفت همتهم فى العبادة؟. إن من الصالحين أيضًا من

يجزعون للموت مثل جزعنا، لأنهم يُقدمون معه على طريق مجهول، ودرب لم يعرفوه من قبل، فكيف لأمثالنا بمثل هذا «الثبات» الذى تحدث عنه ابن الجوزى (رضوان الله عليه)؟.. بل وكيف لأمثالنا ببعض صفات المؤمن التقى، كما حددها إمام المتقين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ فى «نهج البلاغة»، فقال عنه إنه «فى الزلزال وقور، وفى المكاره صبور.. وفى الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب. نفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة.. أتعب نفسه لآخرته.. وأراح الناس من نفسه».

نعم، كيف لأمثالنا بمثل هذا الوقار فى «الزلزال» يا سيدي الإمام؟. لقد جزعنا كما يجزع الآخرون.. وتهيبنا المجهول الذى لا نعرفه، والدرب الذى لم نسلكه من قبل، وجلسنا بعد النجاة منه لاهثى الأنفاس.. شاحبى الوجوه.. فاقدى الرغبة فى الأشياء.. يساورنا الخوف من «التوابع» التى ستليه.. وهواجس الفزع من أن يتكرر بعد قليل، وسجدنا لله شاكرين أن نجانا مما كنا فيه، ودعوناه اللطف بنا فى القضاء، والنجاة مما نخاف.

ثم أسرعتُ إلى التليفون، فاتصلت بأمى فى مدينتها الصغيرة، وإخوتى الذين تفرقت بهم البلاد، وتبادلنا عبارات الاطمئنان، والحمد لرب العالمين على لطف القضاء، ثم وجدت نفسى بعد ذلك

جالسًا إلى مكتبى ساهمًا وزاهدًا فى فعل أى شىء، وأنا أتساءل فى داخلى: لماذا كان فزعى من الزلزال هذه المرة أكبر منه فى المرة الأولى فى أكتوبر ١٩٩٢؟ هل لأنه فى المرة الأولى قد وقع وقت العصر وأنا متيقظ ومنتبه، فسمح لى ذلك بأن أفكر للحظات فيما ينبغى لى أن أفعله فى هذا الموقف؟، أم لأن «خبرة الألم» فى الزلزال الأول وضحاياه قد تنبهت فى أذهاننا فجأة فى اللحظات الأولى، وأفزعتنا من احتمال تكرار أهواله؟.

ووجدت نفسى بغير إرادة أراجع حياتى خلال السنوات الثلاث، التى فصلت بين زلزال أكتوبر ١٩٩٢، وزلزال نوفمبر ١٩٩٥، وأتساءل صامتًا: هل تُرانى قد ارتكبت خلال هذه السنوات الثلاث كبيرة من الكبائر التى نهانا عنها ديننا الحنيف؟. هل آذيت أحدًا عامدًا متعمدًا؟. هل قصَّرت فى حقوق ربى، أو تعديت حدوده؟. هل، وهل.. هل.. واستغرقت فى حساب مرير لنفسى.. لم أنته منه إلا بعد وقت طويل.

إن من المؤسف حقًا أن الإنسان قد يؤلم الآخرين أحيانًا بغير قصد منه، وقد يسىء إليهم من حيث لا يدرى، بسوء الفهم، وقلة الإدراك، ولهذا.. فقد قال عالم نفسى أمريكى إنه لا يكفى أن يكون الإنسان شريفًا ونيته طيبة، بل يجب أن يكون أيضًا متمتعًا بحسن الإدراك والفهم، لأننا قد نسىء إلى الآخرين بعدم الإدراك، وبعدم الفهم أحيانًا بأكثر مما قد نسىء إليهم بالقسوة.. والظلم، لكنه من

رحمة ربنا بنا أنه لا يحاسبنا إلا على نياتنا، وإلا على ما نقترفه فى جقوق الآخرين من أفعال بنية الإيذاء والإيلام، وليس عن غير قصد.

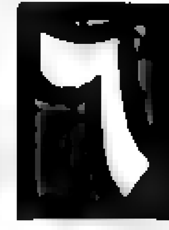
ولقد تذكرت فجأة أننى حين تعرضت لمحنة الزلزال الأولى فى ١٩٩٢، قد رجعت من نفس رحلة الفزع المهرول على السلالم، فأديت صلاة الشكر، وقرأت بعض آيات الذكر الحكيم، فكان من بين ما قرأته للصدفة العابرة.. هذه الآية الكريمة من سورة التوبة: «**ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل عملاً صالحًا**».

لقد أرجعنا الله سبحانه وتعالى بكرمه ورحمته من رحلة الهول الأولى، فهل ترانى قد وفيتُ بعهدى، وعملت عملاً صالحًا؟

لقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى علىَّ خلال هذه السنوات الثلاث بأداء فريضة الحج وبأداء العمرة مرتين، فهل كان هذا كافيًا؟، أم ترانى قد نسيت، ونسى غيرى؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يذكرنا بما نسينا؟.

إن كان الأمر كذلك حقًا، فلقد صدق علىّ وعلى أمثالى قول الشاعر:

احـزن علـى أنـك لا تحـزن
ولا تسىء إن كنت لا تحسن
واضعف عن الشر كما تدعى
ضعفًا عن الخير، وقد يمكن!



الحب الضائع!

**قد يقع الإنسان أحيانًا فى هوى
المكان كما يقع عاشق فى هوى امرأة
جميلة تخلب لبّه!**

هذه حقيقة نفسية يعرفها الكثيرون، لكنهم قد لا يتصورون عمق هذا النوع من الهوى لدى البعضِ أو مدى تأثيره فى حياتهم.

وإلا فكيف يفسر لى أحد مثلاً لماذا يفضِّل الإنسان فى حياته اليومية أن يجلس أمام التليفزيون فى مقعد بعينه لا يستريح إذا شغله سواه، ولا يستقر هو إلا إذا جلس فيه، أو لماذا ترفض الأم العجوز ـ مثلاً ـ أن تغادر بيتها الذى عاشت فيه حياتها لتنتقل للإقامة فى بيت أحد أبنائها رغم وحدتها فى بيتها، ورغم إلحاح الأبناء عليها بذلك وتوافر الراحة فى البيت الجديد.

إنه نوع من الحب الذى يشمل المكان.. والجماد والنبات، وأبرز أمثلته حب الإنسان الفطرى لمسقط رأسه وحنينه الدائم إليه، وحبه للمدينة التى قضى فيها سنوات صباه وشبابه حتى ليتوجع إذا اضطر إلى هجرها، كما شعر الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالأسى حين اضطر للهجرة من مكة إلى المدينة، وقال وهو يغادرها حزينًا ما معناه: والله إنك لأحب البلاد إلىَّ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت.. ومنه أيضًا إحساس الإنسان بالحنين إلى المكان الذى تلقى فيه دراسته خارج بلده ورغبته فى العودة إليه، وإلى البيت أو الغرفة التى أقام بها حين كان طالبًا، كما فعل توفيق الحكيم حين قبل وظيفة صغيرة بهيئة اليونسكو فى الستينيات ليرجع إلى معشوقته باريس التى درس للدكتوراه فيها فى العشرينيات وراح

يبحث عن البيت الذى كان يقيم فى إحدى غرفه، وصدم بأنه قد تمت إزالته وأقيمت مكانه عمارة حديثة.

وأنا واحد من «ضحايا» عشق الأمكنة، الذين تتوزع مشاعرهم على عدد كبير من الأماكن تنتشر فوق الكرة الأرضية، وأشعر تجاه كل واحد منها بالشوق والحنين، ابتداءً من مدينتى الصغيرة، التى عشت فيها طفولتى وصباى بريف الوجه البحرى بمصر، إلى مدينة الإسكندرية التى عشقتها فى سن الشباب، إلى القاهرة التى «أدمنت» الحياة فيها حين التحقت بجامعتها إلى الحد الذى لا أتصور معه لنفسى حياةً أخرى خارجها، إلى باريس التى خلبت لبى حين تعرفت عليها لأول مرة منذ ٢٠ عامًا، وإلى أمستردام التى اكتشفتها للأسف متأخرًا قبل عدة أعوام فقط، وضممتها إلى قائمة الأمكنة التى أريد العودة إليها من جديد، إلى تلك القرية الجبلية الصغيرة التى تقع على الحدود بين النمسا وإيطاليا، التى أمضيت فيها ليلة سعيدة منذ ٢٥ عامًا، ووقعت فى هوى سحرها الجبلى، ثم غابت عنى وغبت عنها للأبد، فكأنها حلم جميل لم يبق منه سوى الذكرى!

وأما قصتى معها فلقد بدأت حين سافرت إلى ميونيخ فى ألمانيا لأشترى منها سيارة أرجع بها إلى ميناء فينيسيا بإيطاليا لأركب الباخرة المصرية عائدًا لبلدى. واشتريت السيارة، وبدأت رحلتى بها عبر ٣ دول لأصل إلى فينيسيا متسلحًا بخريطة توضح لى الطريق،

وقررت أن أقضى الليل فى مدينة إنسبروك النمساوية خلال الرحلة، ثم أستأنف السفر صباحًا إلى إيطاليا، وواصلت السفر على الطريق وحيدًا ومتهيبًا القيادة على الطريق الدولى بغير سابق تجربة، وتسمرت عيناى على لافتات الطريق لأطمئن إلى أننى أسير فى الاتجاه الصحيح، إلى أن عبرت بوابات الحدود الألمانية إلى الحدود النمساوية، ومنيت نفسى بقرب الوصول إلى مدينة إنسبروك وقضاء الليل فيها، لكننى وجدت الطريق خاليًا، والقيادة عليه ليست بالخطورة التى تصورتها فى البداية، فواصلت السير فيه، وقد بدأت أشعر بالثقة فى «خبرتى» بالطرق الأوروبية إلى أن وجدتنى فجأة أمام بوابات الحدود الإيطالية، واكتشفت أننى قد عبرت أرض النمسا دون أن أتوقف بها، فعبرت الحدود وقت الغروب، وخرجت من الطريق الدولى السريع «الأوتوسترادا» إلى الطرق الفرعية الجانبية باحثًا عن فندق صغير بإحدى المدن القريبة، وتوقفت أمام أكثر من فندق، ودهشت لعدم وجود غرفة خالية به رغم صغر المدن وقلة الحركة السياحية فيها، فأوغلت فى السير فى الطرق الفرعية حتى وجدتنى أمام قرية جبلية صغيرة أو على الأصح أمام بيتين أو ثلاثة بيوت ترقد فى سفح جبل مغطى بالخضرة، ولمحت على أحد هذه البيوت لافتة صغيرة تحمل كلمة «فندق» فاتجهت إليه واستقبلتنى سيدة إيطالية متوسطة العمر، رحبت بى وقادتنى إلى الدور العلوى من البيت فوجدت به أربع غرف لاتزيد، هى كل غرف الفندق، دخلت

إحداها فوجدتها واسعة وجميلة، وفراشها نحاسى ووثير، ونافذتها تطل على سطح الجبل الأخضر الساحر، فأُخذت بالمنظر ووقفت لحظات أتامله، ثم تذكرت جوعى فهبطت إلى الدور الأرضى، وحاولت التفاهم مع صاحبة الفندق التى لا تعرف سوى الإيطالية، ففهمت منها ـ بصعوبة ـ أن موعد العشاء قد فات، وأن المطعم قد أغلق أبوابه فوقفت حائرًا أردد كالأبله الكلمة الوحيدة التى كنت أعرفها فى ذلك الوقت من الإيطالية بعد «بونجورنو» أى صباح الخير و «جراتسى» أى شكرًا و «سنيوريتا»، و «سنيورى» بمعنى السيدة والسيد، وهى كلمة «مانجريا» أى طعام، وأما السيدة فقد تفكرت للحظات، ثم ابتسمت وأشارت إلىّ بأن أتبعها إلى المطبخ، وفتحت الثلاجة وأشارت إلى ٣ أطباق كبيرة تحمل اللحم والدجاج والإسباجيتى، وكأنها تسألنى ماذا تريد؟ فأشرت إلى اللحم والإسباجيتى، فأخرجت الطعام ووقفت تطهوه، أو تسخنه بمعنى أصح، وهى تشير لى بالتوجه للمطعم، وبعد قليل جاء الطعام ساخنًا وشهيًا، فشعرت بكل امتنان الدنيا لهذه السيدة الإيطالية الرحيمة! وتناولت طعامى بشهية كبيرة ونمت نومًا عميقًا فى فراشى النحاسى الجميل، وصحوت مبكرًا فنزلت نشيطًا إلى «فراندة» الفندق المطلة على سفح الجبل، وجاءت السيدة الكريمة بإفطارى فتناولته وشربت القهوة الإيطالية البديعة، وشعرت بالرغبة فى عدم مغادرة المكان إلى الأبد، فتجمدت فى مقعدى بالشرفة أتأمل الطبيعة الجميلة

من حولى، وأشعر بسلام عجيب، وكلما لمحت السيدة الطيبة تمر بالقرب منى أشرت إليها طالبًا القهوة أو الشاى، حتى ضحكت فى آخر مرة ورفعت أصابعها برقم ٤ أو ٥ كأنما تحصى علىّ عدد فناجين القهوة والشاى التى شربتها، وكل ذلك وأنا مبتهج وسعيد فالمكان جميل، والسيدة الإيطالية عطوف وودود وجميلة، ولولا ارتباطى بموعد الباخرة التى لابد لى أن ألحق بها فى فينسيسا لما شعرت بالرغبة فى مغادرة هذا المكان قبل أسابيع. وقرب الظهر تحركت من مقعدى كارهًا، وتوجهت للسيدة طالبًا الحساب، فكتبت لى على ورقة صغيرة رقمًا نظرت إليه متشككًا، فقد وجدته يوازى وقتها حوالى عشرين دولارًا فقط، شاملة المبيت والعشاء والإفطار وفناجين القهوة والشاى.. وسحر المكان.. والسلام النفسى الغريب الذى أشعرنى به، ودفعت حسابى شاكرًا وممتنًا، وغادرت المكان وأنا أعد نفسى بالعودة إليه مرة أخرى وقضاء أكثر من إجازة فيه، فهل تصدق أننى لم أستطع العودة إليه بعد ذلك أبدًا؟ وهل تصدق أننى نسيت للأسف اسم هذه القرية فلم أعد أذكره، وأننى حين سمحت لى الظروف بالسفر مرة أخرى إلى إيطاليا بعد عشر سنوات قد فشلت فى الاهتداء إليها لأن قرى الجبل كثيرة، ومتشابهة فى شمال إيطاليا وغربها، ولأننى كنت قد نسيت الطرق الفرعية المعقدة التى سلكتها إليها؟ إن هذا «حب» اندثر، وفرّقت بينى وبينه الأعوام وقلة خبرتى وقتها بفنون عشق الأمكنة!

ولقد استفدت من درس هذا الهوى الضائع بعد ذلك، فأصبحت أحرص على جمع بطاقات الفنادق، والبطاقات البريدية من كل مدينة أو قرية أزورها حتى إذا أردت الرجوع إليها مرة أخرى استطعت الوصول إليها بسهولة.

وكان من دروس هذا الحب الضائع أيضًا أن حرصت على تسجيل الأوقات السعيدة التى أمارس فيها هوى الأمكنة بالصور وكل وسائل التوثيق الممكنة! وفعلت ذلك فيما بعد مع كل مكان زرته وأحببته على سطح الكرة الأرضية، وكان من أحدثها بالنسبة لى ذلك الكوبرى الصغير المجاور لمتحف الفنان الهولندى العظيم رمبرانت فى أمستردام، ففوق هذا الكوبرى الصغير، الذى يصُفّ عليه المقهى القريب مقاعده ومظلاته، أمضيت أجمل الأوقات بعد انتهاء زيارتى للمتحف، وسحرنى المكان المطل على إحدى القنوات البحرية العديدة التى تخترق أمستردام، وسحرتنى لوحة الزهور الملونة الجميلة التى تطل على المكان كله من أصص نوافذ البيوت المحيطة به وشرفاتها، فوعدت نفسى بالعودة إليه مرة أخرى، ومازلت أنتظر وفائى بالوعد فى الصيف المقبل بإذن الله.. أما سلالم بعض شوارع روما الأثرية وميادينها التى يفترشها السياح والشباب من الجنسين فى شمس الربيع الجميلة، فلقد أسفت لتأخر العمر بى عند اكتشافها لأول مرة قبل ١٢ عامًا فقط وأسفت لأننى لم أتعرف بها وأنا فى سن الشباب لكى أفترشها مثلهم متحررًا من كل القيود ومستمتعًا

«بالفراغ السعيد» كما يستمتعون، وأما مقاعد مقهى جورج سانك فى شارع الشانزليزيه، .ومقاعد مقهى ميدان سان ميشيل المطل على الفسقية، ومقاعد مقهى ساحة السوربون بالحى اللاتينى، فلقد نحلتها ونحلتنى فى كل زيارة لى إلى معشوقتى المدللة باريس، وفى كل مرة أذهب فيها إلى باريس أتذكر كلمة الشاعر الألمانى العظيم «جوته» حين رآها لأول مرة فهتف مبهورا: أخيراً آن لى أن أولد! ولا غرابة فيما قال جوته ولا عجب، فالإنسان قد يولد من جديد بالفعل فى «المكان» الذى يحبه، كما يولد المرء مرة أخرى أيضًا حين يقع فى هوى من يحب، ولقد وقعت فى هوى مكان جديد فى الفترة الأخيرة وأضفته إلى قائمة «معشوقاتى» اللاتى أتعذب بالحنين إليهن وأعد نفسى باستمرار الوصال معهن!

ومعشوقتى الجديدة هى مدينة الأقصر الأثرية الجميلة النظيفة، التى تضارع أجمل مدن أوروبا فى نظافتها وجمالها وخضرتها، وتفوقها جميعًا بكنوزها الأثرية، التى لم تبح حتى الآن إلا بأقل القليل من أسرارها.

فقد زرتها منذ عامين لأول مرة بعد أكثر من ٣٣ عامًا من آخر زيارة لها، واكتشفت أن المدينة التى زرتها فى الستينيات قد اختفت من الوجود، وحلت محلها خلال السنوات العشر الأخيرة مدينة أخرى «أوروبية» تفوح بعبق التاريخ والحضارة القديمة والسحر الغامض.

ومن ذكرياتى التى لا أنساها عند زيارتى الأولى للأقصر، أننى قد جئت إليها بالقطار من أسوان وليس من القاهرة لإعداد تحقيق صحفى نسيت الآن كل شىء عنه، لكننى لم أنس أنه كان من ترتيبات إعداد هذا التحقيق أن ينتظرنى فى محطة الأقصر مندوب عن رئيس مجلس المدينة فى موعد وصول القطار فى الليل ليصطحبنى إلى الاستراحة الحكومية التى سأبيت فيها ليلتى، ثم أبدأ لقاءاتى مع المسئولين عن المدينة فى صباح اليوم التالى.. لكنى وصلت إلى محطة الأقصر فلم أجد أحدًا فى انتظارى.. وتلفتُّ حولى أبحث عمن يستطيع إرشادى إلى طريق الاستراحة فلم أجد مُعينًا، فركبت حانطوراً وطلبت من صاحبه أن يتوجه بى إلى أكبر فنادق المدينة، وهو حينذاك فندق «ونتر بالاس» أو قصر الشتاء بالعربية الذى كثيراً ما قرأت عن ملوك العالم ورؤساء الدول الذين يقيمون فيه عند زيارتهم للأقصر، ووصلت إليه بسلام وحجزت لنفسى غرفة فيه، وسألت موظف الاستقبال متوجساً عن أجرها.. فإذا به خمسة جنيهات وخمسة قروش فقط لاغير بأسعار ذلك الزمان السعيد، وبالرغم من أنه من فنادق «الخمسة نجوم».. وأمضيت ليلتى فى الفندق العريق مبتهجًا بالمكان.. ومتخيلاً صور الشخصيات العالمية التى سبقتنى فى الإقامة به، وفى الصباح توجهت إلى مجلس المدينة واستقبلنى رئيس المجلس مرحبًا ومتسائلاً عن سبب عدم حضورى فى الموعد الذى حددته له ليلة أمس، وأجبته بأننى قد حضرت فى

الموعد لكنى لم أجد أحدًا فى استقبالى. وتعجب الرجل لذلك، واستدعى الموظف الذى كلّفه بانتظارى فجاء رجل طيب من أهل المدينة، وأكد لرئيسه أنه كان فى انتظارى على الرصيف ودخل عربة الدرجة الأولى، وتفقد دواوينها واحدًا بعد الآخر سائلاً عن مندوب الأهرام.. فلم يجبه أحد، وإمعانًا فى أداء واجبه فقد وجد فى أحد الدواوين راكبًا مستغرقًا فى النوم توسّم فيه من هيئته أنه قد يكون مندوب الأهرام المنتظر، فهزه برفق فى البداية، ثم بعنف بعد ذلك حتى استيقظ منزعجًا، وما أن فتح الرجل عينيه حتى بادره بالسؤال: هل أنت مندوب الأهرام؟

فنظر إليه الرجل للحظة منزعجًا، ثم أغمض عينيه مرة أخرى وهو يقول له: لا.. أنا مندوب المقطم! ثم رجع إلى سباته من جديد!

وضحك رئيس المدينة كثيرًا، وشاركته الضحك والتعجب.. لأن الموظف الطيب لم يتنبه إلى أن الرجل كان يداعبه أو يسخر منه احتجاجًا على إيقاظه من نومه، واعتقد أنه بالفعل مندوب المقطم، مع أن جريدة المقطم لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت، وتوقفت عن الصدور قبل أكثر من ثلاثين سنة، وهكذا اعتقد الرجل أن مندوب الأهرام لم يجئ.. وجاء بدلاً منه مندوب المقطم.. ولأنه ليست لديه تعليمات باستقباله فقد انصرف عنه وعن المحطة كلها مطمئنًا إلى أنه قد أدى واجبه على خير ما يرام!

ودفعت أنا ثمن خفة دم الراكب المصرى وسرعة بديهته - حتى وهو شبه نائم - من حيرتى على رصيف المحطة، وتخبطى فى البحث عن مأوى لى فى المدينة الأثرية.

فيا لوعة من يكابد عشق الأمكنة مثلى، ويجد نفسه مقيداً بعشرات القيود التى تحول بينه وبين ممارسة عشقه كما يهوى ويرغب، ويا لسعادة من تتيح له ظروفه وإمكاناته أن «يلهو فوق سطح الكرة الأرضية» كما يشاء وكما كان يفعل سيد الرحيمى فى رواية «الطريق» لنجيب محفوظ.. ولقد حدثتك عن بعض الأمكنة التى عشقتها، وأرغب فى العودة إليها مرة أخرى، ولم أحدثك بعد عن الوقوع فى هوى الكعبة المشرفة، أو هوى الرحاب الطاهرة فى جوار الحرم النبوى بالمدينة المنورة، فما أضيق العمر عن أن يتسع لكل ما يرغب الإنسان فى أن يرجع إليه أو يفعله.

وما أضيق العيش لولا فسحة الخيال، وراحة إسترجاع ذكريات الأماكن الجميلة والأشخاص المحبوبين إلى مخيلة الإنسان ومعايشتها أو معايشتهم للحظات قصيرة يسرقها من العمر وتخفف عنه من حين لآخر.. جفاف الحياة!


قطب



قتلتنى يامولاى!

ألم تصادف ذات مرة بائعاً للكتب القديمة يفترش الأرض فى أحد الميادين، وينتقل بكتبه ومجلاته من مكان لآخر، حسب الأحوال، ويدور عمره الآن بين السبعين والثمانين، وفى وجهه «شامة» فوق عينه اليسرى؟!..

إذا رأيت هذا الرجل.. أرجو أن تتصل بى وتدلنى على موقعه الحالى.. ولك منى إلى جانب الشكر مكافأة ثمينة!

أما لماذا أبحث عنه؟!.. فلذلك قصة عمرها حوالى ٢٥ عامًا.. فالحكاية هى أننى من هواة الكتب القديمة، وأسعد أوقاتى حين أصادف رجلاً يفترش الرصيف، ويضع أمامه مجموعة من الكتب والمجلات المستعملة.. فإذا صادفته فلسوف أنسى غالبًا ما أنا ذاهب إليه من عمل أو ارتباط، وسوف أنزل من السيارة لكى أتفحص بضاعته من الكتب باهتمام شديد، ويمضى الوقت وأنا مستغرق فى تقليب صفحات الكتاب ونفض التراب عنها، ثم أختار مجموعة كبيرة منها وأنقد البائع ثمنها، وأرجع سعيدًا بما اشتريت، ومتلهفًا على الاستمتاع بقراءتها.

وقد لازمتنى هذه الهواية معظم سنوات عمرى.. وتمرست ـ بطول الخبرة ـ على اكتشاف جواهر الكتب المدفونة فى تراب الأرصفة وأكوام المجلات القديمة، وعدلت منذ ٢٥ عامًا عن عادتى السابقة فى الجدال مع باعتها حول أثمانها ومحاولة تخفيضها كما كنت أفعل فى جاهليتى الأولى!.. وتعلمت مع الزمن أن الكتاب الذى تشعر بحاجتك إلى قراءته والاستفادة منه لا يغلو ثمنه على من يريد الاستمتاع به.. مهما يبلغ هذا الثمن. كما تعلمت أيضًا من ذلك البائع صاحب الشامة فوق عينه اليسرى أن من يحرص على الكسب قد يفقد كل شىء أحيانًا كما جاء فى النشيد الأول من جحيم

«دانتى» فى «الكوميديا الإلهية». . فكففت عن الملاحاة والمساومة فى أثمان الكتب القديمة وأصبحت منذ ذلك الحين أقبل بما يطلبه بائع الكتب. . مهما يشتط فى التقدير.

ففى ذات يوم منذ ٢٥ عامًا رأيت هذا البائع يجلس على الرصيف، وأمامه مجموعة صغيرة من الكتب القديمة لا يزيد عددها على ٢٥ أو ٣٠ كتابًا. . فتوقفت أمامه كعادتى، وتفحصت كتبه، واخترت مجموعة منها تبلغ ١٧ أو ١٨ كتابًا. . وبدأت عملية المساومة بينى وبينه حول ثمنها، فطلب مبلغًا كبيرًا. . وعرضت مبلغًا صغيرًا. . وراح كل منا يستخدم ذكاءه وشطارته فى إقناع الآخر بما يريد. . إلى أن توصلنا فى النهاية إلى حل وسط، رضى عنه البائع وقبلت به. . فنقدته المبلغ الذى اتفقنا عليه، وهممت بحمل الكتب. . فوجدتها ثقيلة. . وسيارتى بعيدة. . فأعدت إليه «رَصَّة» الكتب وطلبت منه انتظارى إلى أن أرجع إليه بالسيارة. . وتوجهت إلى حيث تركتها، وأدرت محركها بعد شىء من العناء، ودرت بها حول الميدان الكبير لأَمُرَّ بالبائع فى موقعه. . فما إن وصلت إليه حتى وجدت الرجل قد تبخر. . والكتب والمجلات قد اختفت!

وسألت الباعة المجاورين عنه فقالوا لى إنه رجل غريب جاء إلى هذا المكان اليوم فقط. . وقد حمل كتبه ومجلاته وانصرف منذ قليل!

فضحكت من نفسى ومن غفلتى.. وضحكت أكثر من «شطارتى» معه لإنقاص الثمن، «وبلاغتى» الخائبة فى إقناعه بتخفيضه.. وأدركت عن حق أن من يغالى فى الحرص على الكسب قد يفقد بالفعل كل شىء!

وكففت منذ ذلك الحين عن مجادلة أى بائع للكتب القديمة فيما يطلبه ثمنًا لها.. وتعجبت من أننا لا نساوم أى بائع غالبًا فى ثمن بضاعته إلا بائع الفكر والعلم والثقافة.. مع هوان أسعارها إذا قيست بأسعار السلع المادية الأخرى!.. وتذكرت دائمًا عبارة الشاعر الأديب جبران خليل جبران: ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب! واعتبرت كل كتاب قيّم ومفيد ويثرى الفكر والوجدان مكتوبًا بدم القلب، ولا تجوز المساومة فى ثمنه.. وأصبحت أقف كالمتبتل أمام رفوف الكتب فى المكتبات.. أو على الأرصفة!

ومنذ أيام كنت عائدًا إلى البيت أشعر بالجوع والعطش والإجهاد.. بعد يوم شاق فى العمل.. فإذا بى أكتشف «كنزًا» جديدًا على رصيف أحد الشوارع فى طريق العودة.. وإذا بى أتوقف أمامه وأنسى الجوع والإجهاد، وأستغرق فى تفحص الكتب وتقليبها.. وجاءنى البائع الشاب فرحب بى بحفاوة لفتت نظرى.. فسألته: هل تعرفنى؟ فأجابنى هو بسؤال مماثل: هل نسيتنى؟!..

لقد كنت زبونًا لى حين كنت «أفرش» فى الميدان الآخر.. وقد انتقلت لموقعى هذا منذ ٥ سنوات بعد أن طاردتنى شرطة المرافق.. ومنذ ذلك اليوم لم أرك وحاولت الاتصال بك تليفونيًا فى مكتبك لأبلغك بموقعى الجديد، فحالت بينى وبينك سكرتيرتك!..

فاعتذرت له بأسف عن سوء تقدير زملاء العمل الذين لا يقدرون باعة الجواهر حق قدرهم!.. واشتريت منه مجموعة ثمينة من الكتب القديمة.. وسعدت بعثورى بينها على كتاب ثمين قرأته منذ حوالى ثلاثين عامًا.. واختفى فيما اختفى من كتب خلال رحلة العمر!.. وهو كتاب «حياة طبيب» لرائد طب الولادة وأمراض النساء فى مصر الدكتور نجيب محفوظ باشا.. وتذكرت من جديد أنه كان أول طبيب مصرى تخصص فى طب النساء فى مصر، وأنه جاءت على يديه أجيال وأجيال من المواليد منذ أوائل هذا القرن وحتى ما بعد منتصفه.. وأنه كان من بين من سحبهم من أرحام أمهاتهم ـ أديب مصر العظيم.. نجيب محفوظ.. فسماه والده باسم الطبيب المسيحى البشوش الذى أشرف على ولادته.

وتوقفت خلال إعادة قراءتى للكتاب أمام مواقف عديدة فى حياة هذا الطبيب المصرى العظيم.. ولاحظت أننى قد تأثرت بنفس المواقف التى تأثرت بها فيه حين قرأته لأول مرة! ومنها قصة هذه المريضة الفقيرة من قنا التى أصيبت بناسور بولى عقب الولادة،

وعجز أطباء قنا عن علاجها، ونصحوها بالسفر إلى القاهرة والتوجه لمستشفى قصر العينى لكى يعالجْها طبيب اسمه «نجيب محفوظ» له خبرة بجراحات الناسور البولى فبدأت الرحلة إلى القاهرة على الأقدام.. تستجدى طعامها من الناس فى الطريق، وتبيت فى أى مكان.. إلى أن بلغت مستشفى قصر العينى بعد ٤ شهور من بداية الرحلة وسألت البواب عن «نجيب محفوظ» فإذا به يقول لها إنه سيسافر للخارج غدًا.. فراحت تندب حظها وتبكى وتولول.. إلى أن أغمى عليها.. وسمع الطبيب الإنسان صوتها وهو جالس فى حديقة المستشفى مع عدد من زملائه يتحدثون عن رحلته التى سيبدأها غدًا وحجز تذاكر الباخرة لها.. ورتبت مواعيدها شركة كوك للسياحة.. فأمر نجيب محفوظ بإدخالها المستشفى.. وقرر تأجيل سفره أسبوعين، ورفض نصيحة زميل له أن يدعها فى المستشفى تأكل وتشرب إلى أن يرجع من سياحته!.. وأجرى لها الجراحة، وراح يمر عليها كل يوم ليتابع حالتها.. إلى أن مر بالعنبر الذى تقيم به فى اليوم الأخير قبل سفره فسمعها تسأل الحكيمات عن الطبيب الكبير الذى أجرى لها الجراحة لكى تشكره، وتعجبت كثيراً حين عرفت أنه هو نفسه هذا الطبيب الشاب الذى يمر بها كل يوم، ويتابع حالتها بعطف واهتمام! فما إن اقترب منها حتى سألته عن اسمه.. فأجاب: نجيب، وعن اسم أمه.. فأجاب: مريم. فقالت

له: روح يانجيب يا ابن مريم ربنا يكافئك عنى. . ويجعل فى وجهك جوهرة وفى فمك سكرة!

فيَسرُّ هذا الدعاء الصادق النابع من القلب الطبيب الشاب، ويتأثر به، فتغرورق عيناه بالدمع، ويكتب فى مذكراته: «. . فحرصت طول حياتى على أن يكون وجهى طلقًا ولسانى حلواً فى مخاطبة الناس. . تحقيقًا لدعاء هذه السيدة المسكينة».

وتوقفت فى كتاب آخر اشتريته من نفس البائع أمام هذه الكلمات الجميلة لشاعر الهند العظيم. . طاغور: «الحب هو المرفأ الذى ينبغى أن تتجه إليه سفينة الحياة لكى يقودها إلى السرور. . الذى هو غاية الحياة وأصل الأشياء. ولا خير فى حياة تقوم على الأثرة والأنانية، واستغلال الإنسان للإنسان فى أغراضه. . كالآلة الصماء!».

كما توقفت أيضًا فى كتاب ثالث أمام حيرة المعز لدين الله الفاطمى فيمن يستخلفه على المغرب، لكى يمضى إلى مصر ـ التى فتحها له قائده جوهر الصقلى ـ ويجعل منها قاعدة ملكه. فلقد تردد بين رجلين. . أحدهما: جعفر بن على الأندلسى، والآخر: يوسف بلكين سيد قبيلة صنهاجة من البربر. وكان مع المعز عمه وهما يتداولان فى ذلك. . . فقال المعز له إنه سيختبر دخيلة كل منهما، ويختار الأصلح منهما. ثم دعا إليه «جعفر»، وعرض عليه الأمر

فاشترط عليه ألا يسأله عن شيء من الأموال التى يجبيها.. «لأن ما أجبيه يكون إزاء ما أنفقه.. وإذا أردت أمراً فعلته دون انتظار ورود أمرك فيه لبعد المسافة بين مصر والمغرب.. ويكون لى تقليد القضاء والخراج وغيره».

فاستاء المعز لما طلبه وقال له: عزلتنى عن ملكى.. وأردت أن تجعل لى شريكًا فى أمرى.. واستبددت بالأموال والأعمال دونى؟!.. قم فقد أخطأت حظك؟!

ثم دعا إليه «يوسف بلكين» وعرض عليه نفس الأمر.. فاستعظمه واضطرب له وقال: «يامولانا.. أنت وآباؤك من ولد رسول الله ﷺ.. لم يَصْفُ لكم المغرب.. فكيف يصفو لى أنا الصنهاجى البربرى؟!.. قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح»..

فراح المعز يقنعة بقبول ما يعرضه ويهوِّنه عليه.. حتى أجابه إلى مطلبه.. بشرط أن يولى المعز القضاء والخراج من يثق فيهم.. ويكون هو بينهم كالخادم بين أيديهم!

فاستحسن المعز قوله.. وشكره.. وبعد انصرافه سأله عمه: أتثق بوفائه بما قال؟!.. فأجابه المعز فى حكمة: إن ماطلبه «جعفر» فى البداية هو آخر ما ينتهى إليه «يوسف».. ولو طالت المدة بجعفر فسينفرد بالأمر.. أما لو طالت بيوسف فلسوف ينتهى إلى مابدأ به «جعفر»!

وأقامه على المغرب..

وتذكرت من جديد حكاية «من يحرص على الكسب يفقد كل شيء»!.. وتذكرت البائع الذى اغتصبنى كتبى الثمينة بعد أن أجهدت نفسى فى اختيارها.. وفى المساومة على ثمنها.. وتطلعت لقراءتها والاستفادة بكنوزها!

ألم تر حقًا بائع كتب قديمة له «شامة» فوق عينه اليسرى. لكى أسترد منه كتبى المفقودة.. وأدفع له من جديد أضعاف ثمنها؟!!





أخيرا.. أصبح حـُرّا!

دعنى أحدثك هذه المرة على سجيتى، وبغير تحفظ أو تدبير.

ففى أوقات الضيق تشتد حاجة الإنسان إلى الفضفضة.. والإفضاء.. وتضعف قدراته على التجمل والادعاء.

وأنا أعترف لك بأننى فى حالة ضعف نفسى ووجدانى هذه الأيام، وحين يضعف الجسم تضعف مقاومته للأمراض.. وحين تضعف النفس يسهل غزوها بالأحزان.

وما يجرى حولنا لا يبعث فى النفس إلا المرارة.. والاكتئاب.. فإن لم يكن الأمر كذلك فبماذا أستطيع أن أصف حالى.. وأنا لا أجلس ذات مرة أمام التليفزيون إلا وتطالعنى مشاهد وداع الشهداء من الفتية الصغار فى الأرض المحتلة، ولا أدير زرار الراديو إلا وأسمع نواح أهلهم.. وزئير مودعيهم ونشيدهم الجنائزى الحزين.. ولا أمسك صحيفة إلا وأقرأ عن شهداء جدد ينضمون إلى قائمة الأحياء عند ربهم يرزقون.

وكيف يحبس المرء دمعه وهو يرى صبية صغاراً فى العاشرة والثانية عشرة من عمرهم محمولين فوق المحفات، ملفوفين بعلم بلادهم ووجوههم مكشوفة.. وساكنة سكون الموت الأبدى.

وقد كانت منذ قليل تضج بالغضب.. والإصرار والأمل فى حياة أفضل؟.

وماذا يملك المرء أن يفعل وهو يرى الرجال يودعون شهيداً جديداً يزفونه إلى مثواه الأخير بهتاف جماعى يمزق القلب يقول:

ياشهيد ارتاح ارتاح

بكره طالع له صباح

وأليس من نكد الدنيا ألا يكون لأمثال هؤلاء الفتية والغلمان الصغار أمل فى الراحة إلا فى الموت وانطواء صفحة العمر القصير؟

وألا يذكرنا ذلك بنشيد الزنوج الأمريكيين فى عهد الرق حين يموت أحدهم فيتخلص من ذل العبودية وهوان الرق وعسف السادة غلاظ القلوب الذين لا يتعاملون معه إلا بالسوط.. وبدلاً من أن يبكيه رفاقه ويولولوا حزنًا على فراقه كانوا يودعونه إلى مثواه الأخير وهم يرقصون ويغنون مبتهجين وقائلين:

أخيراً.. أصبح حُرًا!

لأنه بالفعل قد أصبح حراً بعد عبوديته فى الأرض ـ وتحرر من الذل والقسوة والوحشية التى كان يكابدها فى الدنيا.. نعم هم أحياء عند ربهم يرزقون، لاشك فى ذلك ولا مراء.. لكن القلب حزين، والنفس مثقلة بما ترى وتسمع كل يوم، واللسان عاجز عن أن يعبِّر عن كل مافى الصدر من غضب وضيق ومرارة.

ولست أعرف من الذى أشار على أهالى الشهداء فى الأرض المحتلة بأن يكشفوا عن وجوههم خلال وداعهم الأخير.. ولاهل

جاء ذلك عفواً أم كان تدبيراً مقصوداً، لكى تظل ذكراهم حية دائماً فى القلوب، وتؤجج لهيب الغضب فى الصدور، وتطالب الآخرين بالثأر لهم.. لكننا نعرف أن الشهداء لا تتخذ معهم الإجراءات الحزينة المعتادة التى تتخذ مع غيرهم ممن يلقون المصير حتف أنوفهم، ونعرف أنهم يوارون الثرى بدمائهم وملابسهم، وحيث لقوا مصارعهم، كما أمر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بدفن شهداء بدر، لأنهم فى الجنة منذ صعدت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وليسوا فى حاجة لما يتبع مع غيرهم من الراحلين.. فمن أين إذن جاءت فكرة كشف الوجوه خلال الوداع الحزين.. التى أوجعت قلوبنا.. وأرقت ضمائرنا وأفقدتنا الرغبة فى الأشياء.. وحتّام سنشاهد هذه المشاهد الموجعة الحزينة؟

فى شبابنا كنا نحفظ نشيداً كان يردده اليساريون فى محاكماتهم يقول مطلعه:

اشـــتدى أزمـــة تنفرجـــى

قـــد آذن صبحـــك بالبَلَـــج

أى بالبزوغ والانبلاج..

فهل آن لهذا الليل الطويل أن ينقضى.. وينبلج الصباح حاملاً معه العدل والكرامة والأمان للمضطهدين والمستضعفين فى الأرض؟

وهل كانت تشعر بذلك تلك الأم الفلسطينية التى رأيتها على شاشة التليفزيون تحمل صورة ابنها الشهيد الذى لم يتجاوز ـ ياحسرة القلب ـ السابعة عشرة من عمره.. وتزغرد «فرحًا» باستشهاده زغرودة كالولولة الحزينة أوجعت القلب بأكثر مما تفعل الولولة والنحيب؟

ولماذا شعرت باكتئاب الدنيا كلها وأنا أرى هذه الأم الثكلى وهى تتعالى على أحزانها.. وتتجلد عند استشهاد ابنها؟!

ولماذا تذكرت فى تلك اللحظة عبارة التعزية الشعبية الشائعة فى ربوع الشام حين يريد أحدهم أن يخفف عن أب ثاكل أحزانه على فقد ابن، فيقول له مصبرًا: إن مَنْ أخذه من أمامه قادر على أن يأخذه أيضًا من قلبه!

بمعنى أنه يدعو له بنسيان من فقده.. لكى يتخفف من آلامه..

فهل «ينسى» الأب الثاكل والأم الثكلى حقًا ثمرة القلب الحزين حين يغيب عن الحياة؟!

إن أعزاءنا لا يموتون حين يرحلون عنا.. وإنما يموتون حقًا حين ننساهم، ونحن لا ننساهم، وإنما نسترجع صورهم ونتحدث إليهم ونعاتبهم على غيابهم عنا.. ونرجو لهم السعادة فى عالمهم الأفضل ونشعر بوجودهم معنا وحولنا كل حين.. فكيف «يؤخذون» من

القلب إذن بعد أن أُخذوا من الحياة، وقلوبنا هى متاحفهم وسجلات ذكرياتهم.. ومستقرهم إلى يوم يبعثون.

حين كنت فى السويد، أحضر احتفالات توزيع جوائز نوبل، جمعتنى مائدة العشاء مع صحفى ألمانى، ودار بيننا حديث السياسة الذى لا مفر منه فى مثل هذه المناسبات.. وتطرق بنا الحديث إلى القضية الفلسطينية، فقال لى الصحفى الألمانى إن الطرف الآخر فى الصراع مدجج بالسلاح حتى قمة الرأس، وبالتفوق التكنولوجى والدعم الأمريكى وميزان القوة لصالحه الآن وفى المدى القريب.. فكيف ستستردون الأرض الفلسطينية إذن من أنيابه؟ وماذا يملك الفلسطينيون أن يفعلوا إذا رفضوا شروط الإسرائيليين وسلامهم المنقوص الذى يريدون فرضه عليهم؟

فأجبته بأنهم يملكون مالا يملكه الطرف الآخر فى الصراع وهو المقاومة والرفض إلى آخر نفس.. وتقديم الشهداء طلبًا للحق والعدل إلى مالا نهاية، ورويت له قصة ندوة سياسية شهدتها قبل سنوات، ضمت كتَّابًا غربيين وعربًا.. وتوجه خلالها أحد الكُتَّاب الغربيين بنفس هذا السؤال لسيدة فلسطينية شابة، وسألها بتحد: بأى شيءٍ ستحاربين لكى تنالوا مطالبكم من الطرف الآخر؟

فأجابته فى هدوء: ببطنى!

وقبل أن يفيق الحاضرون من ذهولهم لهذه الإجابة غير المتوقعة

كانت قد شرحتها لهم، فقالت إنها سوف تتزوج وتنجب سبعة أبناء لاتريد منهم سوى اثنين فقط، أما الخمسة الباقون فسوف تهبهم للقضية.. ولن تحزن حين يستشهدون الواحد بعد الآخر.. وبذلك لن تموت القضية.. ولن يضيع الحق مهما يطل الظلم!

وأحسب أن هذا هو ما يجرى الآن بالفعل فى الأرض المحتلة، وسوف يتواصل إلى أن يتحقق العدل.. وتسترد الحقوق.. فـ «بقية السيف أنمى عدداً» كما قال ذات يوم الإمام على بن أبى طالب.. بمعنى أن من بقوا على قيد الحياة ونجوا من الاستشهاد بالسيف سوف يواصلون الجهاد، وسوف تتزايد أعدادهم على مر السنين إلى أن يدحروا الظلم، وينشروا العدل فى الأرض.

ألم يكن هذا ما فعله شهداء غزوة «مؤتة» الثلاثة حين التقى المسلمون، وهم ثلاثة آلاف رجل، بجيش هرقل العظيم وهو مائة أو مائتا ألف؟

ألم يحمل زيد بن حارثة راية النبى فاندفع بها فى صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر، فإذا مزقته الرماح تناول الراية من بعده جعفر بن أبى طالب وهو شاب فى الثالثة والثلاثين واندفع فى القوم، فلما قطعت يمينه أخذ الراية بشماله، فلما قطعت اليسرى ضم عضديه على الراية حتى قُتِل وأخذ منه ابن رواحة الراية وقاتل بها حتى استشهد، ثم حملها من بعدهم خالد بن الوليد.

وأليس هذا هو ما تفعله الأجيال المتتالية من أطفال الحجارة جيلاً بعد جيل!

فإذا كانت العين تدمع فى وداع شهداء اليوم.. فلقد بكى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه شهداء مؤتة وكان حزنه على زيد وجعفر أعظم، وأجاب من سأله معاتبًا حين رأى دمعه: أليسوا فى الجنة؟

ـ بلى.. لكنها عبرات الصديق على الصديق!

وهل يصبح غريبًا بعد ذلك أن نرى أطفالاً فى الخامسة والسادسة من أعمارهم يقذفون الحجارة على جنود مدججين بالسلاح ويعرضون حياتهم للخطر، ومن هو الشجاع فى هذا المشهد الغريب.. الطفل الذى يخرج إلى الشارع وهو يعرف أن الموت قد يحصده فى أية لحظة.. أم الجندى الأشوس الذى يرتدى قميصًا واقيًا من الرصاص.. ولا يتردد لحظة فى أن يرد على «حجر» هذا الطفل بالذخيرة الحية؟

وفى أى عُرف ودين يكون الرد على القذف بالحجارة.. بالرصاص الحى وبالتصويب فى مقتل من الرأس والقلب؟!

ومن يكون إذن مجرم الحرب الذى لا تسقط جريمته بمضى المدة إن لم يكن مثل هذا الجندى الجبان المتعصب تعصبًا عرقيًا أعمى.. وآمِره بالضرب المباشر وحكامه ومحرضوه؟

إننى لا أحب الكتابة فى السياسة.. ولا أفضل خوض غمارها، إيمانًا منى بأن لكل ميدان رجاله.. ولأننى أيضًا قد عاهدت نفسى منذ أمسكت بالقلم ألا أكتب كلمة لا أؤمن بصدقها حتى ولو تبين لى فيما بعد خطأ اعتقادى.. فالمهم هو أننى لم أكتبها حين كتبتها إلا وأنا مؤمن بها، لكن نهر الدم الذى يجرى أمام العين، والمشاهد الكئيبة التى تحيط بنا من كل جانب قد فرضت علىَّ أن أكتب هذه الكلمات العاجزة.. وشعرت بأننى لن أكون صادقًا مع نفسى إذا راغمت قلمى على أن يكتب فى أى موضوع آخر هذا الشهر.. فعفواً لما أثقلت عليك به.. وسلامًا على الشهداء فى مستقرهم الأمين.

وأملاً ودعاءً ألا يضيع دمهم الطاهر هدرًا..



٩

غرباء.. فى الليل!

الغرباء.. غرباء فى الليل والنهار معًا.. لكن إحساسهم بالغربة يتعمق لديهم فى الليل أكثر.. أما فى النهار فقد يخفف منه انشغالهم بعملهم وصراعهم مع الحياة. ثم تغرب الشمس وراء الأفق ويسدل الظلام أستاره على الكون

وتؤوى البيوت الدافئة أصحابها، ويبقى الغرباء وحدهم فى الشارع أو فى المساكن الخالية يبحثون فى الليل عن أنيس لوحدتهم، أو سمير يبدد وحشتهم فيزدادون إحساسًا بالغربة والوحدة والانكسار!.

ولأن الغربة الحقيقية لا تقتصر على غربة المكان وحدها، وإنما تمتد إلى غربة النفس أيضًا فى حياة لا تجد فيها دفئها المعنوى والعاطفى، فإن الغرباء فى الحياة كثيرون ولو كانوا يعيشون فى أوطانهم، وربما لهذا السبب بالذات لم تؤثر أغنية عاطفية فى نفوس البشر على اختلاف جنسياتهم كما أثرت أغنية فرانك سيناترا الشهيرة التى غناها بصوته الدافئ الحنون فى الستينيات: غرباء فى الليل!. وهى الأغنية التى يقول فيها: الغرباء فى الليل يتجولون.. يتبادلون النظرات.. يبحثون عن الحب الحقيقى، قبل انتهاء الليل!. ويختتمها بإعلان أن: الوقوع فى الحب مناسب.. للغرباء فى الليل!.

ولم تحظ أغنية مثلها ببعض ما حظيت به من شهرة فى الغرب وفيما وراء المحيطات.

وحين انطوت حياة هذا الفنان العظيم، قفزت هذه الأغنية بالذات إلى ذاكرة كثيرين، واستعادوا نغماتها الحزينة وكلماتها المؤثرة، وكنت

حين أعلن خبر رحيله عن الحياة فى باريس، ففوجئت بصورة سيناترا تغطى شاشات كل محطات التليفزيون العالمية، وأغنيته الشهيرة تتردد فى خلفية شاشة التليفزيون خلال إذاعة أنباء الرحيل والتغطية الإخبارية لقصة حياته. وسرحت وأنا أجلس فى شقة صغيرة بأطراف باريس أتابع حوارات المذيعين مع رفاق رحلة حياة النجم الشهير، وتذكرت كيف فُتنت وأنا فى مرحلة الشباب بأفلامه وأغانيه وكيف استمعت لأغنيته الشهيرة هذه لأول مرة فى خريف عام ١٩٦٦ من البرنامج الأوروبى بإذاعة القاهرة وأنا مستلق فى فراشى بشقتى الصغيرة التى كنت أعيش فيها وحيدًا فى ذلك الوقت، وكيف صادفتنى هذه الأغنية فى مساء أحد أيام الجمعة التى كنت أمضيها وحيدًا غالبًا فى مسكنى ويزداد خلالها إحساسى بالوحدة والانقطاع عن الأهل والأحباء، فمسَّت وترًا حساسًا فى نفسى، ودمعت لها عينى، وكيف أحببت هذه الأغنية الحزينة ورحت أترصدها كل حين فى البرنامج الأوروبى، إلى أن حصلت على الألبوم الذى يتضمنها فيما بعد وأصبحت واحدة من أغنياتى المفضلة التى تذكرنى بمرحلة الشباب وأحلامها الموءودة وعذاباتها الصغيرة، إلى جوار أغانى عبد الحليم حافظ، وأغانى محبوبى القديم عبد الوهاب، ولم يكن ذلك غريبًا.. إذ لم تعرف السينما الأمريكية والغناء الغربى قبل سيناترا مطربًا أثار تأوهات الفتيات الصغيرات

خلال غنائه وإعجاب الشباب بصوته العاطفى الدافئ العميق، كما فعل فرانك سيناترا.

فهو المؤرخ العاطفى الأشهر لشباب الخمسينيات والستينيات فى أمريكا والغرب كما كان عبد الحليم حافظ مؤرخنا العاطفى الخاص فى هذه المرحلة من العمر، ولم تكن رائعته التى مازالت حية ومسموعة حتى الآن.. غرباء فى الليل.. هى درته اليتيمة، فلقد سبقتها وتلتها أغنيات عديدة نالت إعجاب المستمعين وحبهم منها: «حاول شيئًا من الرقة»، «إنى أحتفظ بك تحت جلدى»، و«طريق» وغيرها.

ولم يكن نجاحه كممثل رائع بأقل من نجاحه كمطرب عاطفى جميل، كما لم يكن طريقه أيضًا إلى الشهرة والنجاح والنجومية خاليًا من المعاناة والآلام، بالرغم مما حققه من نجاح أسطورى استمتع به حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

فلقد وُلد «فرانكى ألبرت سيناترا» فى مدينة هويكن بولاية نيوجيرسى لأب مهاجر من إيطاليا يعمل رجل مطافئ، وبَدأ حياته العملية صبيًا فى مطبعة الجريدة المحلية بمدينته يطبع التجارب الصحفية، ويخرج فى المساء ليلتقى برفاقه من أبناء المهاجرين الإيطاليين فى الحانات الرخيصة، حيث يستخفه الطرب أحيانًا فيغنى

ويعجب الرفاق بصوته، فيبدأ محاولاته لتشكيل فرقة صغيرة من الهواة رغم معارضة أبيه لاتجاهه للغناء الذى يعدّه حرفة المتشردين، لكن الفتى الإيطالى يواصل طريقه ويجذب صوته أسماع رواد الحانات الصغيرة التى يغنى فيها مع رفاقه وتفوز فرقته بجائزة للهواة ويجد بعد ذلك فرصة ذهبية للانضمام للباند الشهير وقتها.. فرقة هارى جيمس الموسيقية، ويصبح أحد مطربى الكورس فيها، ثم يبدأ طريقه كمطرب منفرد بالغناء لمدة ٨ أسابيع على مسرح بارامونت بنيويورك يحقق خلالها أول نجاح حقيقى له ويفوز بلقب جماهيرى بديع هو حبيب أمريكا!.

وتنتشر أغانيه العاطفية ويشارك فى بطولات الأفلام السينمائية، ثم تشهد حياته محنة شخصية مؤلمة كادت تقضى عليه وهو فى بداية طريق النجاح والصعود فى أوائل الخمسينيات، فلقد فشل زواجه بحبيبته الأولى وأصيب بمرض فى أحباله الصوتية، توقف بعده عن الغناء وبدا المستقبل أمامه مظلمًا وكئيبًا، وألغى وكيله الفنى عقده معه باعتباره قد انتهى كمطرب، لكن سيناترا لم يستسلم لليأس وقاتل حتى شفى من مرضه، وسعى للحصول على دور صغير فى فيلم اسمه «من الآن وإلى الأبد» لم يكن ليقبل به قبل محنته الصحية والنفسية، ورضى بالأجر الصغير الذى عرض عليه مقابل القيام به،

وأدى الدور بكل ما تركته المحنة على نفسه من آثار وبصمات، فإذا به يفوز عن هذا الدور الصغير الذى عاب عليه أصدقاؤه قبوله بجائزة الأوسكار كأحسن ممثل مساعد، وإذا بهذا الدور يعيده إلى بؤرة اهتمام المنتجين من جديد، فيؤدى بعده أدوار البطولة فى عدة أفلام جديدة، ويفوز بجائزة الأوسكار كأحسن ممثل عن فيلم «الرجل ذو الذراع الذهبية»، ويتألق بالنجاح والشهرة والثراء، ويسيطر بصوته العاطفى الدافىء على وجدان الشباب الأمريكى فى الخمسينيات والستينيات حتى ليكتب أحد مؤرخى الفن فيقول: إن أمريكا قد مر بها وقت كان فيه كل حبيبين يلتقيان فى المساء يهيمان معًا مع أنغام موسيقى أغنية من أغنيات سيناترا!.

وواصل سيناترا رحلة الصعود إلى المجد وحظى بما لم يحظ به مطرب آخر من الشهرة والنفوذ والاحترام فى بلده، وكان الصديق المقرب لمعظم رؤساء أمريكا خلال الثلاثين عامًا الأخيرة وغنى فى حفل عيد ميلاد جون كيندى بعد انتخابه رئيسًا لأمريكا عام ١٩٦١، وكان الصديق المقرّب للرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان وزوجته نانسى، ومنحه ريجان أعلى وسام يمنح لمواطن أمريكى وهو ميدالية الحرية عام ١٩٩٠ .

واعتزل الغناء فترة محدودة من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٧٣ لكنه رجع إليه وظل يغنى فى الحفلات الخيرية لصالح الأطفال الفقراء، وكما شهدت بداية حياته محنة كادت تقضى عليه قبل الأوان تعرض لمحنة أخرى وهو فى أوج شهرته عام ١٩٧٦، حين قامت المباحث الفيدرالية الأمريكية بالتحرى عن علاقته ببعض زعماء المافيا، وظهرت له فى الصحف صورة تجمع بينه وبين بعضهم، وتردد الحديث عن أنهم قد ساعدوه فى بداية حياته الفنية باعتباره أمريكيًا من أصل إيطالى مثلهم.

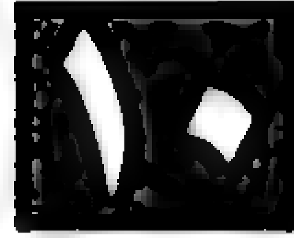
لكن سيناترا صمد لكل الزوابع والأعاصير واكتفى حين سئل عن تعليقه همّا يثار حوله بأن قال: نقائص العظماء هى عزاء التافهين الذين لم يحققوا نجاحًا فى حياتهم ويعوضون فشلهم برمى الناجحين بالاتهامات والقذائف!.

ومرت العاصفة من غير أن تنال الكثير من مكانة سيناترا لدى محبيه، وعاش حياته مستمتعًا بالشهرة والثراء والحب والحياة العائلية، وتزوج بأربع من أجمل النساء هن حبيبته الأولى نانسى بارباتو، ثم النجمة الفاتنة آفا جاردنر ثم النجمة الجميلة ميا فارو، ثم زوجته الرابعة والأخيرة التى لفظ أنفاسه الأخيرة وهى إلى جواره بربارا ماركس.

كما ارتبط خلال رحلة العمر بالنجمة الجميلة مارلين مونرو، وكان هو الذى عرّفها بجون كيندى وشقيقه روبرت فارتبطت بكليهما فيما بعد بعلاقة عاطفية. لقد كانت حياته حافلة بالنجاح والثراء والحب والفن الراقى الجميل.

وبرحيله عن الدنيا انطوت صفحة حياة فنان رائع أمتع عشاق الغناء العاطفى بأجمل الأغنيات، واستدر أنهارًا من دموع العذارى فى أنحاء الكرة الأرضية كلها.

فوداعًا لهذه القطعة الأخرى الجميلة من ذكريات الشباب.. وترى ماذا قد بقى الآن من رموزها ونجومها على قيد الحياة؟.



يوميات الحزن.. والخوف.. والألم!

قرأت زوجته وهى فى مدرستها خبر نقله مأموراً لمركز الشرطة فى تلك المدينة من مدن جنوب مصر فى فترة احتدام المعركة بين الشرطة والجماعات الدينية، فانهارت وأحاطت بها زميلاتها وساعدنها على العودة إلى البيت، وحين رجع الزوج فى موعده بكت وطلبت منه أن يستقيل من الشرطة وألا يذهب إلى الجنوب..

فلقد شاهدت فى التليفزيون قبل أيام جنازة ضابط شرطة شاب اغتالته العناصر الإرهابيية ورأت أباه يبكى بمرارة خلال المراسم الحزينة وزوجة الضابط الشاب أو أرملته تبكى وطفلتاها الصغيرتان تنوحان على أبيهما، فكيف يسعى زوجها إلى الموت بقدميه؟! والمركز الذى نقل إليه هو بؤرة الإرهاب فى جنوب مصر ووقائع الاغتيال المتبادل بين الفريقين تتوالى وقد راح ضحيتها ضابط كبير برتبة اللواء وآخر برتبة العميد أطلقوا عليه ٩٠ طلقة قتلته هو وحراسه الأربعة فضلاً عن المخبرين وأمناء الشرطة والجنود الذين سقطوا فى هذه الأحداث الدامية.

لكن المأمور الجديد لا يجد مفراً من أداء الواجب وتنفيذ قرار النقل رغم إدراكه ما هو مقدم عليه.. ويسافر إلى مركزه الجديد ويدخل مكتبه فيلاحظ أن على بابه يقف جنديان ومساعد شرطة يحملون السلاح الآلى، فى حين يسند هو إلى الحائط بندقيته الآلية من طراز كلاشينكوف التى سلمت إليه فى اللحظة التى دخل فيها إلى المركز.. ويبدأ ممارسة مهام منصبه فى هذا الجو العصيب المشحون بالترقب والتوجس والغموض!.

وبهذه البداية الدرامية ينبه مؤلف هذه الرواية الواقعية ضابط الشرطة حمدى البطران كل حواسنا ويثير فضولنا لمعرفة

ماذا سيكون من أمره فى هذه المعركة المحتدمة وماذا سيكون تأثيرها عليه؟.

ولقد اختار الضابط الأديب لروايته الوثائقية هذه عنوان: «يوميات ضابط فى الأرياف» استرجاعًا لذكرى رواية توفيق الحكيم الشهيرة «يوميات نائب فى الأرياف» التى كتبها الأديب الكبير عن فترة عمله كوكيل للنيابة فى الأقاليم، وصدرت هذه الرواية عن دار الهلال فى شهر فبراير الماضى بعد أن هدأت نيران المعركة بين الشرطة والعناصر المسلحة فى صعيد مصر فلفتت الرواية انتباه بعض نقاد الأدب لا بقيمتها الفنية والأدبية وحدهما وإنما أيضًا بقيمتها الوثائقية وكشفها الكثير من أسرار المعركة التى جرت على أرض الجنوب واستمرت عدة أعوام بين الشرطة وعناصر الجماعات المسلحة. ولم أقرأ هذه الرواية للأسف عند صدورها لكنى سمعت عنها من بعض أصدقائى الذين قرأوها وأذهلتهم بما تضمنته من وقائع مخيفة ومصادمة للمشاعر، وحين بحثت عنها لأقرأها كان الضابط الأديب قد أحيل إلى التحقيق فى وزارة الداخلية بتهمة إفشاء أسرار العمل، وثار الجدل فى المجتمع الأدبى بمصر حول الخيط الرفيع بين العمل الأدبى والوثيقة الأدبية التى تعتمد على حقائق واقعية، وإلى أى مدى يجوز للسلطات المختصة أن تتعامل مع الرواية الأدبية كمصدر للمعلومات التى تعتبر سرية من وجهة نظرها.

ثم خمدت العاصفة التى أثارتها الرواية ولا أدرى إلى أين انتهى التحقيق مع مؤلفها، وهل شفعت له أم لا سوابقه الأدبية كمؤلف لمجموعة قصصية وثلاث روايات أخرى، فى اعتبار روايته هذه مجرد عمل أدبى، وليست إفشاءً لأسرار عمل الشرطة؟. لكن المرجح أن يكون قد عوقب إداريًا لفضحه بعض الأساليب التى استخدمتها الشرطة فى صراعها مع الإرهاب ولكشفه أسرار ما جرى خلال المعركة من بعض الأمور والتجاوزات على نحو يرفض العقل الأمنى معه اعتبارها مجرد وقائع أدبية من نسج خيال المؤلف.

فماذا يقول لنا الضابط الأديب حمدى البطران فى روايته المخيفة هذه؟ لقد جلس المأمور الجديد إلى مكتبه بالصعيد تاركًا وراءه زوجته وأسرته الصغيرة فى القاهرة، فكان أول المتصلين به رئيس المدينة يطلب زيارته للتهنئة بمنصبه الجديد.. وخرج المأمور لاستقباله فوجده قد اصطحب معه رجلاً يرتدى بدلة صيفية ضيقة عند الإبطين قدّمه له بأنه أمين الحزب الوطنى بالمركز ورجلاً آخر شديد الطول والنحافة قدَّمه له بأنه رئيس المجلس المحلى ورجلاً ثالثًا يرتدى بدلة صوفية فى عز الحر ويتجاوز الخمسين من العمر وقدّمه له بأنه أمين شباب الحزب!.

وبعد عبارات المجاملة والترحيب المألوفة عرض رئيس المدينة خدماته لتيسير مهمة المأمور الجديد، فكان أول طلب للمأمور هو

تدبير مكان يتسع لإقامة ألفى جندى من جنود الأمن المركزى وقوات الأمن، يتطلب الموقف وجودهم فى المركز.. وانشغل الرجلان ببحث وسائل الإعاشة ومكان السكن لهم فإذا بهما يسمعان صوت سقوط جسم على الأرض ويلتفتان حولهما فيجدان الرجل الطويل النحيل مستلقيًا بظهره على الأرض وقدماه مرفوعتان لأعلى! فلقد كان يجلس على مقعد بلا ظهر ونسى ذلك ورجع بظهره للوراء ففقد توازنه وخرّ ساقطًا على الأرض، وانفجر الحاضرون جميعًا فى ضحك هيستيرى كأنما يعوضون به ما يستشعرونه جميعًا من اضطراب وقلق وخوف من المجهول! وخرج المأمور يتفقد مبانى المركز ورأى امرأة ترتدى النقاب الأسود وتحمل كيسًا من البلاستيك يحوى بعض الأطعمة فما إن اقترب منها حتى قالت له بصوت خافت: أخوى ماضى له سبوعين عندكم؟.

ويسألها المأمور: هل هو محجوز بمركز الشرطة؟ فتجيبه: من غير سبب أخذوه فى اللمة! فيأمر بإدخال الطعام الذى جاءت به إلى شقيقها بعد تفتيشه جيدًا! وتمضى الأحداث بالمأمور الجديد وبهذه المدينة التى تحيا فى ظلال كابوس مخيف من العنف الدامى بين طرفى المعركة.. ويعود المأمور إلى عمله ذات صباح فيلفت انتباهه أن جندى الحراسة الذى يقف بباب مركز الشرطة لم يطلق نداءه الجهير: انتباه! ويعرف من ذلك أن ضابطًا أكبر منه رتبة لابد أن

يكون بداخل مبنى المركز. . ويمضى إلى الداخل فيعرف بالفعل أن مفتشًا من وزارة الداخلية قد جاء للتفتيش على سلامة إجراءات العمل، ويحييه المأمور ثم يدخل إلى غرفته فيأتيه بعد قليل نائبه ليقول له إن المفتش قد وجد تسعة أشخاص فى الحجز بدون أوراق تسوغ حجزهم، ويتساءل المأمور دهشًا: كيف؟ ويعترف الرجل بضمير الأديب قبل ضمير رجل الشرطة، بأن دهشته لم تكن تتعلق بوجود أشخاص فى الحجز دون مسوغ، وإنما بكيفية عثور المفتش عليهم واكتشافه أمرهم، فلقد كان يعرف بوجود هؤلاء الأشخاص فى الحجز ويعرف أنهم محجوزون ـ حسب التعبير الشرطى ـ على ذمة أمن الدولة، أى لحساب مباحث أمن الدولة بلا أوراق وهو عُرف من أعراف الشرطة فى عالمنا الثالث السعيد حين يتم توسيع دائرة الاشتباه والتحفظ على بعض الأشخاص بهدف الضغط عليهم للإدلاء بمعلومات عن الهاربين أو المطلوب القبض عليهم، لكنه عُرف آخر لدى الشرطة أن يتم إخفاء هؤلاء الأشخاص المحتجزين بلا مسوغ قانونى عن عينى مفتش الداخلية حين يجىء لأداء عمله وعن عينى وكيل النيابة حين يقوم بتفتيش حجز المركز مرة كل شهر، فكيف عثر المفتش على هؤلاء؟ هكذا تساءل المأمور أمام نائبه، فتذكرت موقفًا مماثلاً سجّله توفيق الحكيم فى رائعته القديمة «يوميات نائب» حين طلب تفتيش حجز المركز فاستمهله المأمور

بضع لحظات وهرول خارجًا من المكتب ثم أطل وكيل النيابة الشاب بالصدفة من نافذة الغرفة فرأى جاويش المركز يخرج بضعة أشخاص من الحجز ويدفعهم أمامه ليخفيهم فى اسطبل الخيل، ويتأمل وكيل النيابة الفنان المشهد ثم يقول لكاتبه العجوز بانزعاج: هذا.. ولا سجن الباستيل! فيجيبه كاتب النيابة الذى عركته السنون بأن «الوقت صعب» ولا داعى لأن يتشدد «سعادته» فى مثل هذا الأمر وأن من الأفضل أن يوقع دفاتر الحجز ويتجاهل ما رأى مُراعاة للظروف الحاضرة!.

ولأن «الظروف الحاضرة» تتجدد باستمرار وتتكرر إلى ما لانهاية فلسوف يظل هناك مبرر دائمًا للتغاضى عن مثل هذه التجاوزات بنفس الحجة ونفس الظروف وهى «صعوبة الوقت» أى حساسيته.

وبين المهام الروتينية وتطورات الصراع المحتدم بين فلول الهاربين من جانب ورجال أمن الدولة وضباط الأمن المركزى من جانب آخر تلتقط عين المأمور الأديب بعض الصور التى تستحق التسجيل والتأمل.

فوسط هذا الجو الكئيب يستدعى عسكرى الشرطة المخصص لمكتبه وهو رجل ضخم وطويل طولاً فارعًا اسمه أبو شخلول ويعطيه عشرة جنيهات ويطلب منه شراء: أى شريط «ميوزيك»!.

فيتسلم العسكرى النقود ويهز رأسه علامة على الفهم ثم يسأله من باب التأكد: من الأجزخانة يا باشا؟ ويكتم المأمور ضحكة ويرشده لشراء الشريط المطلوب من أى محل لبيع شرائط الكاسيت وبعد يومين يعطيه بضعة شرائط ويعيد إليه من مبلغ الجنيهات العشرة التى أعطاها له سبعة جنيهات كاملة!.

ويدخل على المأمور رجل أسمر بدين بدانة مفرطة يرتدى جلبابًا من الصوف الثقيل ويلتف بشال من الكشمير ويعانق المأمور مُرحبًا به بحرارة وهو يؤكد له أن المدينة قد رأت «النور» فى حياتها مرتين مرة حين دخلتها الكهرباء والثانية حين عُيِّن هو مأمورًا لمركزها!.

ويعرف المأمور أن هذا الشخص البدين هو همّام عمدة إحدى البلدات التابعة للمركز والشخصية الخطيرة ذات النفوذ فى مجتمعها الصغير وصاحب الذكاء الفطرى الحاد والعلاقات المتشعبة مع المسئولين بمديرية الأمن والمولع بالنساء والذى لم يتورع عن قتل زوج امرأة أعجبته لكى يتزوجها، كما لم يتورع عن فعل ما يريد وارتكاب الجريمة فى سبيل فرض نفوذه وإتاواته على أبناء بلدته من العاملين خارج مصر، دون أن يجسر أحد على الشهادة عليه أو الإبلاغ عنه.

ويدخل رئيس وحدة المباحث بالمركز إلى المأمور ليبلغه بأنه قد نما إلى علمه أن ثلاثة من العناصر الهاربة يختبئون بمنزل مهجور

بضواحى المدينة وتبدأ الاستعدادات للقيام بهجوم واسع من رجال الشرطة على البيت المهجور.. ويجىء لواء من مديرية الأمن لقيادة المعركة وضابط برتبة العقيد من مباحث أمن الدولة، وتتحرك الحملة فى الموعد المحدد تتقدمها سيارة نصف نقل للتمويه وتتضمن ستة جرارات زراعية وجرافة كبيرة وعربات تحمل الجنود، وتحيط القوة بالمنزل المهجور من كل الجوانب ويبدأ الاقتحام وينطلق الرصاص بغزارة وتعلو صرخات النساء.. ويرجع ضابط شرطة من المنزل فيقول لمساعد مدير الأمن:

ـ لم نجد أحدًا!.

ويسأله اللواء:

ـ على من أطلقتم الرصاص؟.

فيجيب:

ـ أطلقناه على الموجودين بالمنزل ولكن لم يُصب أحد! ويرجع الضباط من داخل المنزل ومعهم رجلان وامرأة مسنة وأطفال وأحد الرجلين يصيح: خربوا بيتى منهم لله.. منهم لله! ولا يفوت الأديب مأمور الشرطة أن يسجل أنه لم يفهم من هم المقصودون بهذا الدعاء، هل هم العناصر الهاربة التى تنتمى عائليًا لهذا الرجل وكانت السبب فى اقتحام بيته وترويع أسرته؟ أم هم أفراد

قوات الشرطة التى جاءت وراءهم فأطلقت الرصاص كالمطر على البيت؟!.

وتفشل هذه الحملة على غير المتوقع، لكن مهمة أخرى تنتظر مأمور المركز فلقد تلقى إشارة عن قتل ثلاثة من أعضاء الجماعات فى المركز المجاور وهم من أبناء قرية تابعة لمركز المأمور كاتب اليوميات ولابد من دفنهم فى مدافنها، ونكتشف نحن من قراءة هذه الرواية أن عملية دفن قتلى هذا الصراع بين الشرطة والجماعات لم تكن تقل خطرًا وخطورة عن عمليات الهجوم المسلح على هذه العناصر، فقبيل الغروب خرج المأمور مع قوة كبيرة من الجنود وعدد محدود من أهالى القتلى وانتظروا عند أول الطريق المؤدى للمدافن وبعد قليل وصلت سيارة شرطة يركب فيها ضابط برتبة نقيب ومن بعدها سيارة الإسعاف البيضاء التى تطلق أصواتًا كالصراخ ومن ورائها موكب يضم ثلاث سيارات كبيرة تحمل تشكيلاً كاملاً من الجنود المسلحين ومعهم عدد كبير من الضباط، ومساعد مدير الأمن وضابط كبير من أمن الدولة.

ويتحرك الموكب الجنائزى إلى المدافن تتقدمه سيارة المأمور، وتبدأ عملية الدفن وسط حراسة مشددة، وفى جو بالغ التوتر والشجن فى نفس الوقت، ويقف المأمور يرقب الموقف ويستمع فى صمت لأحد الأهالى يشرح له طبيعة المنطقة وتاريخها، ثم فجأة تظهر فى المكان

حوالى خمسين امرأة يتشحن بالسواد وهنّ يصرخن ويلطمن وواحدة منهن تحدولهن حداءها الرتيب الحزين فتقول:

ـ أيوه دا نزعل عليه.

ـ أيوه دا نزعل عليه.

ـ السلاح الحلو فى إيديه.

ـ ما يخيل إلا عليه.

والنساء يرددن النداء وراءها ثم يشتركن فى نواح جماعى موجع للقلب فيهتفن معًا:

ـ يوى.. يوى.. يوى!.

ويتسلل الشجن إلى نفس المأمور الذى يطالبه واجبه بأن يظل جامد المشاعر فى هذه اللحظة الكئيبة، ويلحظ هو أن المدرس الذى كان يتقرب إليه بالحديث عن تاريخ المنطقة قد أدار وجهه للناحية الأخرى ليدارى دمعة ساخنة طفرت من عينيه، ويرى الرجال من الأهالى الواقفين بالقرب منه يدفنون وجوههم فى مناديلهم ليمسحوا دموعهم الغزيرة التى استدرها إنشاد المرأة الحزين، ويدرك المأمور أن القضية أعمق غورًا من كونها مجرد صراع بين رجال الشرطة وبعض العناصر المسلحة الهاربة، وأن جذور الثأر بين الفريقين عميقة وليست عابرة وتحتاج إلى وقت طويل لاجتثاث جذورها، وإلى أن يتحقق

ذلك ـ وما هو بالأمر الهين ـ فلسوف تظل القرية كما رآها فى هذا المشهد المأساوى الحزين تبكى شبابها الذين «زانهم السلاح» كما قالت المنشدة الحزينة فى رثائها لهم. . وفى مواجهة رجال الشرطة ـ لأنهم على حد تعبير كاتب الرواية الخطيرة ـ قد مرغوا هيبة الشرطة فى التراب!.

وتواصل المرأة حداءها الأليم فتقول:

عينى عليه لما وقع.

والدم من جرحه نقع.

عينى عليه لما راح.

والدم من جرحه ساح.

ثم ينوح الكورال الجنائزى من بعدها: يوى. . يوى. . يوى، فيفكر المأمور الذى بدأ الشجن والاكتئاب يتسللان إلى نفسه فى طريقة لمنع هؤلاء النسوة من الاسترسال فى نواحهن المفجع، لكنه يتراجع عن ذلك قائلاً لنفسه إنه لا ينبغى أن يحرم هؤلاء البشر حتى من الحزن على ضحاياهم!.

ويكتفى بمراقبة الموقف والشجن يتكثف فى داخله، والرغبة فى مغادرة هذا المسرح التراجيدى الحزين تلح عليه أكثر من أى شىء آخر.

فى الأيام الأولى لتسلمه العمل.. يدخل على المأمور الضابط النوبتجى للمركز ليعرض عليه بلاغًا تقدم به أحد الأهالى وهو فلاح اسمه فنجرى اسكندر عن تغيب ابنته عزيزة البالغة من العمر سبعة عشر عامًا دون أسباب واضحة، وينهى الأب بلاغه بأن ابنته مريضة نفسيًا ولا يتهم أحدًا باختطافها.

وطوال أحداث هذه الرواية سوف يطل علينا من حين إلى آخر مشهد جديد من مشاهد قصة اختفاء الفتاة القبطية عزيزة لتصبح الخط الدرامى الذى يربط بين أحداث الرواية ويذكرنا بالخط المماثل لقصة الفتاة الريفية الجميلة «ريم» فى رواية توفيق الحكيم «يوميات نائب فى الأرياف»، ثم تتواصل يوميات الضابط الأديب لترسم لنا معالم هذا العالم الغريب المشحون بعوامل الخوف والحزن والترقب.

يركب مأمور الشرطة سيارة المركز إلى المدينة القريبة للقاء اللواء نائب مدير الأمن للمنطقة، وتمضى سيارته فى الطريق السريع تتقدمها سيارة حراسة وتتبعها أخرى وبعد قليل يتوقف سائق سيارته ويقول للمأمور بضيق: تفتيش! وينظر المأمور فيرى حاجزًا أمنيًا وسيارتين للشرطة وعددًا من الضباط صغار السن يرتدون بنطلونات الجينز ويحملون الرشاشات يوقفون السيارات ويدققون فى أوراق ركابها وينظر إلى يمينه فيرى فى كشك المرور أربعة أشخاص يرتدون الجلاليب الواسعة ويلاحظ أنهم مقيدون إلى بعضهم البعض من

خلال أكمام جلاليبهم الطويلة ووجوه بعضهم متورمة ويتساءل عن سبب احتجازهم فيقول له أحد الضباط الصغار فى سأم: اشتباه!. أى الاشتباه فى انتمائهم للجماعات الدينية.

ويقول آخر إنه كلما اكتمل عدد المشتبه فيهم ستة أو سبعة فإنه يتم نقلهم لمقر المنطقة لاستجوابهم، ويتنهد ضابط آخر صغير السن من أبناء مدينة الإسكندرية فى ضيق ويتساءل: متى نرجع لبلادنا؟.

مبنى المنطقة يبدو وكأنه قلعة حصينة فالطرق المؤدية اليه من كل الجهات بها حواجز للشرطة وعلى باب المبنى شاهد الضابط الأديب إعلانات تحمل صورًا باهتة لأشخاص متطرفين مطلوب القبض عليهم وتعجب لوضع الصور فى هذا المكان الذى لا يقترب منه أحد سوى رجال الشرطة.

وفى المكتب الواسع وجد سيادة اللواء يرتدى بدلة تدريب رياضية «ترييننج سوت» ويجلس مسترخيًا إلى أريكة وفى يده تفاحة كبيرة وأمامه طبق به ثلاث أخريات وفى يده الأخرى جهاز اللاسلكى يتابع من خلاله حالة الأمن ويرحب اللواء بالمأمور ويدعوه لتناول الشاى دون أن يفكر فى دعوته لتناول إحدى ثمرات التفاح، ويدخل عليهما العقيد حسن مشرف السياحة ليبلغ اللواء بأن «السياح» قد غادروا المنطقة بسلام، ويكتشف المأمور أن هؤلاء السياح ليسوا سوى سائح واحد وزوجته وقد تزوجا قبل يومين فى مصر ورغبا فى زيارة منطقة

أثرية قريبة ففوجئا بركب من سيارات الحراسة يتقدمهما ويتبعهما ويشعر معه السائح بأنه أهم من الرئيس الأمريكى نفسه، وتشعر الزوجة بالامتنان الشديد لهذه المجاملة فتطلب من أحد خفراء الآثار الذين يجيدون الإنجليزية أن يبلغ شكرها للحكومة المصرية لترتيبها لموكب الزفاف الجميل هذا احتفالاً بزواجهما السعيد.

يدخل الضابط المناوب على المأمور ويعرض عليه محضر التحقيق فى واقعة اختفاء عزيزة فنجرى اسكندر، فيعرف منه أنه قد تم العثور على جثتها فى قاع بئر مهجورة بالقرب من بيت والدها، وينتهى المحضر بعدم توجيه الأب الاتهام لأحد بقتلها.

يُدعى مأمور الشرطة للذهاب إلى عاصمة المحافظة لاجتماع فى مديرية الأمن فيتوجه إلى هناك حاملاً سلاحه وفى مبنى المديرية يلتقى بالعديد من الضباط، ويفاجأ بأحدهم يقترب منه صائحًا: حمدى.. الله يخيبك.. جيت هنا إزاى؟. ويلتفت إليه فيصيح بدوره مرحبًا: شوكت!. ونعرف نحن من حديثهما أنهما زميلان فى الدراسة بكلية الشرطة وأن شوكت هذا كان منذ صباه شابًا «شقيًا» متمردًا وكثير العلاقات النسائية، وبعد تخرجه عمل بشرطة السياحة والآثار حيث تفتحت أمامه أبواب الشقاوة على مصاريعها فوجد نفسه بعد قليل «نجمًا» مرموقًا بين السائحات الأجنبيات والعربيات والأفريقيات يمضى نهاره جالسًا فى بهو الاستقبال يرامق السائحات

النظر ويلفت انتباههن بوسامته الشديدة وجسمه الممشوق، ويصطحب من تقع أسيرة لسحره ليقضى معها وقتًا ممتعًا، وفى نهاية اللقاء قد تقدم له السائحة هدية مالية وهى تشكره على الوقت الممتع الذى قضته بصحبته فيقبله شاكرًا، ويومًا بعد يوم يصبح هذا «الوقت الممتع» مصدر دخل كبير للضابط الوسيم، ويعترف لصديقه القديم بأن دخله منه قد بلغ فى بعض الأوقات ٥٠٠ دولار كل يوم، لكن العاملين بالفندق «نَفسوا» عليه هذه «النعمة» وأبلغوا الداخلية عنه.. وأحيل للتحقيق وانتهى الأمر بمعاقبته إداريًا ونقله إلى الصعيد فى ذروة اشتعال المعركة مع الإرهاب.

وينعقد الاجتماع الخطير فى غرفة مدير الأمن ويستعرض الحاضرون الأوضاع الأمنية فى المحافظة، ويشكو بعضهم من أنهم يواجهون الإرهاب وحدهم دون مساندة من باقى فئات الشعب، ويعلق المدير على ذلك قائلاً: هذا قدرنا!.

وينصرف الحاضرون بعد الاجتماع، لكن المدير يستبقى مأمور الشرطة الأديب ليبلغه بأن هناك حملة مكبرة سوف تجرى فى نطاق مركزه هذه الليلة للهجوم على بعض العناصر المسلحة فى مخابئها ويطلب منه الاستعداد لها.

تتجمع القوات فى المركز ابتداءً من العاشرة مساءً ويعرف المأمور من ضابط أمن الدولة أنهم قد اكتشفوا مخبأ هذه العناصر عن طريق

مراقبة بائع خبز يقوم ببيع الخبز الأفرنجى لبعض محال الأطعمة فى القرى، بعد أن لاحظوا أنه يبيع الكمية التى يحملها كلها فى قرية معينة يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع، واستنتجوا من ذلك وجود بعض العناصر المختبئة فى هذه القرية، وراقبوا فلاحًا ينتظر هذا البائع فى الموعد المحدد ويتسلم منه الخبز وبعض كميات اللحم، ورأوا عن طريق المنظار المعظم بعض عناصر الجماعات يتسلمون الخبز واللحم من الفلاح فى الجبل فى هذين اليومين، واكتملت الاستعدادات للحملة بوصول اللواء مساعد مدير الأمن وضباط الأمن المركزى وهم ضباط صغار السن ويرتدون الملابس السوداء ومدربون تدريبًا عاليًا على الاقتحام والقتال.

وتحركت الحملة إلى القرية الموعودة، وانتظرت ساعات فى مقر نقطة الشرطة بها ثم تحركت مرة أخرى إلى منطقة الجبل فى ثلاث مدرعات، وتقدم ثلاثة من ضباط الأمن المركزى الشبان بملابسهم السوداء وفى يد كل منهم بندقية آلية وجهاز لاسلكى وهم يهرولون وظهورهم منحنية ليكمنوا عند مخارج مغارة فى الجبل تختبئ بها العناصر المسلحة.. ووقف المأمور إلى جوار اللواء مساعد مدير الأمن يحبسان أنفاسهما ترقبًا لما سيجرى حين يخرج هؤلاء المختبئون من مغارتهم فى الرابعة صباحًا لصلاة الفجر، وبعد نصف ساعة من الصمت والترقب سمعا صوت انطلاق ثلاث دفعات من البنادق الآلية.

وصفّر جهاز اللاسلكى فى يد اللواء بعد قليل وسمع صوتًا واضحًا يقول:

ـ مبروك يا باشا، المأمورية انتهت، ممكن تتفضل!.

وتقدم «الباشا» مع بقية الضباط والجنود إلى موقع الاشتباك ونهض ضباط الأمن المركزى المنبطحون من الأرض وقال أحدهم إن هناك أربعة قتلى من العناصر المسلحة، وتقدم رجال أمن الدولة لفحص الجثث وتفتيش جيوب ملابسها ثم دخلوا إلى المغارة التى كانت مأوى لهم فعثروا على كيس فيه كمية كبيرة من طلقات الرصاص وكيس آخر وجدوا فيه ١١ رزمة من الأوراق النقدية فئة العشرين جنيهًا وبعض الخطابات وكشكولين عن قتال كفّار العصر الحديث والأدلة الشرعية التى تجيز قتالهم!. وهناك ملابس لرجال شرطة وبطاقات شخصية وعائلية مزورة وطيور أثرية محنطة.

ورجع الركب من مهمته فسأل سائق سيارة المأمور رئيسه:

ـ صحيح يا باشا لقيتوا فلوس!.

ولم يجب المأمور، لكنه فوجئ بعد قليل بضابط أمن الدولة يقول له:

ـ عن إذنك يا باشا نوزع الغنائم!.

ثم قام بإفراغ محتويات كيس النقود على مقدمة السيارة واصطف

أمامه الجنود الذين شاركوا فى الحملة فأعطى كلاً منهم ورقتين من فئة العشرين جنيهًا وأعطى السائقين والمخبرين وحراس نائب المدير وحارس المأمور ٤ أوراق لكل منهم.

وعندما رجع المأمور إلى مكتبه لمس وجوم رئيس وحدة المباحث بالمركز واكتئابه، وكان قد لاحظ عليه فى الفترة السابقة وجومه وحزنه غير المفهومين حتى ظن أنه ينفر منه شخصيًا لسبب لا يعلمه، فسأله عما به فأجابه: أبدًا فقط لم أتمكن من صلاة الفجر!.

فتأكد المأمور من أن شيئًا ما قد تغير داخل هذا الضابط الشاب ولهذا فينبغى مراقبته جيدًا!.

ولم يطُل ترقب المأمور لما يمكن أن يسفر عنه «تغيّر» هذا الضابط الشاب، فبعد أيام عُثر على شاب من أهل البلدة غريقًا وبعد إخراج جثته تبين أنه قد قُتل قبل إلقائه بالنهر، وألمح والده لرجال النيابة باتهامه الشرطة بقتل ابنه للشك فى صلته بالجماعات، وبدأت النيابة التحقيق ففوجئ الجميع باستدعاء وكيل النيابة ثلاثة من ضباط الأمن المركزى الذين شاركوا فى إحدى الحملات بتهمة قتل هذا الشاب، وتساءل رجال الشرطة فى انزعاج عمّن أبلغ النيابة بأسماء هؤلاء الضباط وهى فى العادة من الأسرار المضنون بها حتى على رجال الشرطة أنفسهم، وتبين أن رئيس وحدة المباحث هو الذى أبلغ والد

القتيل والنيابة بأسمائهم فلم تمض ساعات حتى كان قد صدر القرار بنقله للمطافئ وتعيين رئيس جديد لوحدة المباحث!.

يستأنف معاون المركز التحقيق فى حادث غرق عزيزة فنجرى اسكندر ويواجه والدها ببعض المعلومات عن تورطه هو شخصيًا فى قتلها، فيعترف ببساطة بأنه قد قتل ابنته بالفعل فى الحقل وحمل جثتها وألقاها فى البئر، ويسأله عن السبب فيجيبه بعفوية: علشان أغسل عارى وأشيل الهم من جواى!.

ويتضح أن الأب كان يشك فى سلوك ابنته، وأنها كانت تكثر من الخروج وحدها، وترفض أن تجيب على أسئلة أبيها حين يسألها أين كانت، فقرر أن يتخلص منها.. ثم تكتمل فصول المأساة الدرامية حين يكشف تشريح الجثة أن الفتاة كانت عذراء وأنها قد قتلت بالشبهة والظن بسوء سلوكها فقط.

يرجع العمدة همّام إلى الظهور مرة أخرى فى مكتب مأمور الشرطة الأديب، ويواصل العمدة الغامض طريقته فى المبالغة فى المديح والإطراء فيزعم للمأمور بأن «الخير» قد زاد فى البلدة منذ مجيئه مأموراً إليها ويهنئه بظهور «البشائر» على مقدمه السعيد، ويتساءل المأمور عن معنى هذه البشائر فيشرح له العمدة أنها تعنى ظهور علامات على وجود دفينة أثرية فى البلدة ظهرت بعض بشائرها بالفعل، ثم يقدم له إحداها وهى تمثال فرعونى بديع لحشرة

الجعران من المرمر الأسود وتمثال آخر لطائر يشبه الخفاش ويطلب من المأمور اختيار أحدهما لوضعه على مكتبه مؤكدًا له أن ثمنه لا يقل عن عشرين ألف جنيه، لكن المأمور يقرر أن يحرق قلب العمدة على البشائر الثمينة هذه ويتجاهل طلبه بأن يختار أحد التمثالين ويضعهما معًا فى مكتبه قائلاً له: هدية مقبولة ياعمدة!.

فلا يملك العمدة إلا الصمت والنهوض مصافحًا المأمور وهو يؤكد له أنه يستحق ماهو أكثر من ذلك!.

يستقبل المأمور فجأة عقيدًا سبقت له زيارة المركز عدة مرات لمراقبة أحواله من قبل، ويجلس الزائر فى مكتب المأمور صامتًا ومُحرجًا فيرن جرس التليفون ويسمع المأمور صوت مدير الأمن يقول:

ـ يا فلان أحضر حقيبتك معك وتعال لمقابلتى، فقد عيَّن العقيد عبد المجيد مأمورًا للمركز بدلاً منك!.

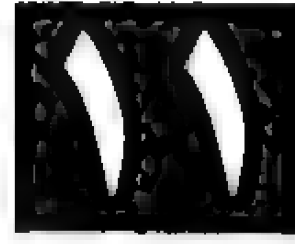
ويضع الضابط الأديب السماعة وعبد المجيد ينظر إليه بإشفاق ثم ينهض لإخراج أوراقه فيجد التمثالين فى درج مكتبه فيعطيهما للمأمور الجديد قائلاً له:

إنهما هدية العمدة همام للمكتب.. ويتفحصهما عبد المجيد الذى عمل من قبل بشرطة الآثار ويعرف قيمة مثل هذه التماثيل النادرة فيتردد فى قبولهما ويقول له: «إنها جريمة»، لكن المأمور المعزول يصر

على ترك التمثالين له بدعوى أنهما «بركة» من الفراعنة، ويغادر المكتب وساحة هذه الأحداث الدرامية العجيبة إلى غير عودة.

وتنتهى هذه الرواية الخطيرة التى استغرقتنى بأحداثها وجوها الغريب ودلالاتها المخيفة طوال فترة قراءتى لها، فكيف يمكن الحكم عليها بعد الانتهاء من قراءتها؟.

وهل نستطيع حقًا أن نعتبرها عملاً أدبيًا بحتًا ونركن إلى مثل هذا التفسير الأدبى ونستريح؟. أم ترى أن الكثير من وقائعها المخيفة يتجاوز بالفعل حدود هذا التفسير السهل، ويثير الكثير.. والكثير من علامات التساؤل وأسباب الانزعاج؟.



علّمته الأحزان نظم القصيد!

ذكرنى هذا الشاعر بما ظننت أنى قد
نسيت، وأثار تأملاتى الحزينة!

والقصة هى أنه قد جاءنى زميل صحفى لا أعرفه يعمل بإحدى الدول العربية، وقال إنه يحمل لى رسالة من صديق له يعمل بنفس الدولة و«بروفة» كتاب.. فتحت الرسالة وقرأتها فوجدت صاحبها يرجونى أن أقرأ بروفة ديوانه الشعرى المرفق مع الرسالة، وأن أكتب له مقدمته ويستحلفنى أن أفعل ذلك على غير معرفة به، تشجيعًا له وشحذًا لهمته حيث إنه ديوانه الأول، ويبلغنى أنه سيرجع إلى القاهرة فى أجازته السنوية بعد أسبوعين ويأمل أن يجد المقدمة جاهزة قبل أن تنتهى أجازته بمصر.

يا إلهى.. ماذا أفعل مع من يتوسم فىَّ الاستعداد لتقديم هذا العطاء له، ويؤلمه بغير شك أن أخذله؟

إننى لو استمعت لنداء العقل وحده لاعتذرت عن عدم الاستجابة لهذا الرجاء على الفور، ولما لامنى أحد على ذلك، فوقتى مشحون بواجبات ثقيلة لا تدع لى أحيانًا فرصه لالتقاط الأنفاس أو القيام بكثير من المهام الضرورية والواجبات الاجتماعية، ولقد راجعت جدولى خلال الشهور الأخيرة، فوجدتنى أقضى داخل جدران مؤسسة الأهرام التى أعمل بها ما لا يقل عن ١١ أو ١٢ ساعة كل يوم موزعة على فترتى الصباح «والسهرة» ولا أقول فترة المساء لأننى أرجع من عملى إلى بيتى فى السادسة مساء أو السادسة والنصف فأتناول طعام «الغداء» المتأخر، وتنهار مقاومتى فجأة وأنا أحتسى

الشاى فأستسلم لنوم أشبه بنوم الغيبوبة لحوالى الساعة ثم أنهض مثقل الرأس سقيم الوجدان فأسرع بارتداء ملابسى والعوده للأهرام فى التاسعه فأبقى فى مكتبى إلى أن يشاء الله، وأرجع إلى بيتى فى الثانية صباحًا، فلا يتاح لى سوى تلك الساعات الثلاث حتى الخامسة صباحًا لكتابة كل ما أُريد كتابته وقراءة كل ما «أتمنى» قراءته، وأدخل إلى فراشى بعد الخامسة، وأنهض من نومى فى العاشرة لأواصل اللهاث والجرى بلا نهاية.

فكيف يتسع مثل هذا الجدول المرهق للاستجابة لنداء قارئ حسن الظن بى، ولدىَّ كتابان جديدان ينتظر مؤلف كل منهما أن أكتب له مقدمته منذ بضعة أسابيع؟ ولماذا لا أكون أكثر «حزمًا» مع نفسى فأعتذر من البداية بضيق وقتى عن عدم تلبية مثل هذا النداء فأريح وأستريح؟

ولماذا أخجل دائمًا ممن يطلب منى ذلك الطلب فأعده بالاستجابة له، ثم أضيق بالدنيا كلها بعد ذلك وأنهال على نفسى لومًا وتقريعًا؟ وأتساءل كيف سأفعل ما وعدت به وقد عجزت فى بعض الفترات عن الانتظام فى الكتابة فى بعض المجلات التى أكتب بها بسبب ضيق الوقت؟

نعم إننى أقدِّر مشاعر الآخرين وأعرف كم يكون مؤلمًا لكاتب

ناشئ أن تصدمه بالرفض من الوهلة الأولى، وأتمثَّل دائمًا فى قسوتى على نفسى للاستجابة لمثل هذا النداء، بأستاذنا الأديب الكبير يحى حقى، الذى كان - رحمه الله - لا يرد طلبًا لأديب ناشئ يلتمس تشجيعه الأدبى له بكتابة مقدمة لكتابه الأول.

وظل يقدم هذا العطاء لكل من يطلبه بسماحه أبوية وأستاذية طبيعية فيه، إلى أن عجز عن الكتابة فى سنواته الأخيرة بسبب ضعف النظر، لكن أين أنا من الأديب الكبير وقد كان أستاذًا لمدرسة وناقدًا أدبيًا بفطرته وقد تخلى عن الوظائف والمسئوليات فى العشرين عاماً الأخيرة من عمره فاتسع وقته لمثل هذا العطاء الأبوى الفياض؟

لا فائدة - على أية حال - من اللوم بعد فوات الأوان، فلقد عجزت نفسياً عن الاعتذار للزميل الذى قدم إلىَّ بروفة الكتاب، وحملتها إلى بيتى ووضعتها على مكتبى فوق تل الواجبات التى تنتظر الأداء، واستغرقتنى دوامة العمل والحياة إلى أن أفقت ذات يوم على تليفون من الشاعر الشاب، يبلغنى أنه قد وصل للقاهرة ويسأل متى يتسلم منى المقدمة.. فتجدد الإحساس القديم لدىَّ بالاختناق، والعجز عن القيام بكل ما أتمنى القيام به وجاهدت نفسى ذات ليلة فخصصت الساعات الثلاث «اليتيمة» التى تسمح لى بها ظروفى لديوانه، وجلست إلى مكتبى بالبيت لأقرأه فوجدت صاحبه يقول فى

مقدمته إن رحيل ابن شقيقه الصغير عن الحياة وحزنه الشديد عليه كانا الشرارة الأولى التى فجرت لديه لهب الشعر المقدس فكتب أولى قصائده فى رثاء هذا الابن، ثم تواصلت الشرارة بعد ذلك فكتب بقية قصائد الديوان، ولم تكن له قبل هذا الحدث الحزين تجربة جادة فى الشعر، ولم يكن يعدّ نفسه قبل ذلك شاعراً! فتوقفت طويلاً أمام هذه الكلمات وقرأت القصيدة التى أفرزتها مشاعر الحزن والألم لديه عدة مرات ثم قرأت بقيه قصائد الديوان فوجدت نغمة الحزن الشفيف تشيع فيها جميعاً.

وتساءلت: هل يكون الألم هو أقدر المشاعر الإنسانية على تحريك الشعور وإطلاق شرارة الإبداع لدى الفنان؟

إن كل المشاعر الإنسانية تستطيع أن تطلق شرارة الإبداع لدى الإنسان، لكن الألم والحب فيما يبدو هما أقواها أثرًا فى ذلك، حتى لقد كتب الشاعر الإنجليزى شيلى ذات يوم مؤكداً هذا المعنى فقال:

علَّمتنا الأحزان نَظْم القصيدْ

فأهدينا للناس فى أنغام الشعر

ما تلقيناه من ضربات الألم والشقاء

لكن الأحزان لا تصنع وحدها شاعراً ولا فنانًا، وإلا لأصبح كل

البشر شعراء وفنانين، وما أكثر الأحزان فى حياة البشر وما أندر أوقات السعادة الحقيقية فى أعمارهم.

وإنما لابد أن تكون الموهبة كامنة من الأصل فى أعماق الإنسان وتنتظر ما يطلقها من عقالها.

وليس كالألم شعور آخر يمكن أن يطلق شرارة الإبداع لديه، سوى شعور الحب سواء بمعناه العاطفى الخاص أو معناه الإنسانى العام.

ومن خيوط الحب والألم ينسج الشاعر والفنان غالباً معظم إبداعه، ولو لم يكن الأمر يتطلب الموهبة قبل المشاعر لحق لنا أن نتساءل: ولماذا لم تعلمنا الأحزان نحن أيضًا نظم القصيد وفى العمر ما فيه من الآلام؟

بل لعلى أقول أيضاً إن مَن علَّمته الأحزان نظم القصيد قد يكون أسعد حالاً من غيره لأنه ينفّس عما يكابده من آلام بالبوح بها «وبغنائها» شعراً أو فنًا أو أدبًا.

أما «العصافير الخرساء» التى لا تعرف الغناء فإنها تضاعف من حسرتها بما تعانيه بعجزها عن التنفيس عن الأحزان والآلام والبوح بها.

ولأن أغلبيه البشر من نوعية هذه العصافير الخرساء ولا ينشدون

أحزانهم شعراً وفناً وأدباً فإنهم قد يجدون بعض عزائهم فى إنشاد الموهوبين لأحزانهم بالشعر والفن والأدب نيابة عنهم، وفيما يشعرون به من شجن حين يسمعون هذا الإنشاد فترقّ له مشاعرهم وحين يستجيبون لآلام الآخرين ويتفهمونها لأنهم قد سبقوهم على طريق الآلام وفهموا أعماقها.

ومن يفهم أكثر .. يحزن أكثر كما يقول الشاعر الألمانى جوته لأنه يدرك أكثر وأكثر كم هى الحياة قصيرة، وكم هى الأحزان طويلة، وكم هى أوقات السعادة الحقيقية قليلة، ولأنه يدرك أكثر وأكثر عمق «المأساة الإنسانية»... التى يلخصها لنا الشاعر الألمانى ريلكه فى هذه الأبيات المعبرة:

وحدنا ولدنا

وحدنا تعذّبنا

وحدنا تطهرنا بنار الندم

وحدنا نموت!

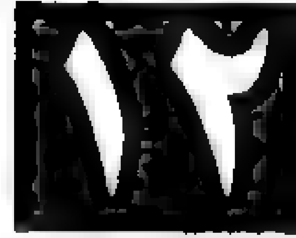
ولو فهم الإنسان كل حقائق الحياة فهمًا صحيحاً وعميقاً على هذا النحو لما استطاع إلا أن يهتف مع الشاعر الأصيل طاهر أبو فاشا يرحمه الله:

فياغوثاه ياغوثاه

ومن طول النوى أوّاه

وآه.. آه.. آه... آه!

وسامحك الله أيها الشاعر الشاب الذى أهدانى ديوان أحزانه الخاصة فقرأتها وعايشتها فنبهت الأحزان الغائرة فى النفس، تماماً كما يلقى الإنسان بقطع جديدة من الخشب إلى نار المدفأة التى أوشكت على الانطفاء، فتستعيد النار عافيتها القديمة وتتراقص باللهب الأحمر من جديد، وكلما أوشكت على الخمود تلقت زاداً جديداً من «طعام الأحزان» على حد تعبير ريلكه فيحفظ لها الحياة!



كـان إنسانـًا!

مازال هذا الكتاب الصغير يصاحبنى
فى أسفارى إلى الخارج منذ دخل
«الخدمة» عندى قبل سنوات!

فأنا أقرأ بصفة منتظمة منذ اخترت طريقى فى الحياة، فأقرأ طلبًا للمعرفة، وبحثًا عن إجابات لأسئلة محيرة.. كما أقرأ كذلك للمتعة الخالصة، وأتذكر دائمًا كلمة العملاق العقاد: ليس هناك كتاب أقرؤه ولا أستفيد منه، فحتى الكتاب التافه أستفيد منه بأن أعرف كيف يفكر الكُتَّاب التافهون وفيم يكتبون؟

لكنى أقع من حين إلى آخر على كتاب أستريح إليه أكثر من غيره فأعيد قراءته أكثر من مرة وأضعه إلى جوار فراشى لأرجع إليه فى ليالى الأرق التى أحتاج فيها لأن أقرأ شيئًا لا ينبه مشاعرى فيبعد عنى شبح النوم.

فإذا استعددت لسفر إلى الخارج اخترت كتابين أو ثلاثة كتب جديدة لأقرأها خلال الرحلة لأول مرة، واخترت معها كتابًا من كتب «الخدمة المستمرة» الموضوعة إلى جوار فراشى.. لأرجع إليه وأعيد قراءة بعض فصوله حين أشعر بالملل، وقد لاحظت أن هذا الكتاب يتغير فى أسفارى الداخلية والخارجية كل بضع سنوات.. فلقد يصاحبنى كتاب منها عامًا أو عامين.. ولقد يصاحبنى كتاب آخر عامين أو ثلاثة أو أربعة حسب الأحوال، وفى بعض المراحل كان لابد لى من أن اصطحب معى رواية أو مجموعة قصصية لأديبنا العظيم نجيب محفوظ، مع أنى قرأت كل أعماله فور صدورها أكثر من مرة، وأستطيع أن أؤدى امتحانًا فيها جميعًا وأجتازه بغير

رسوب.. وفى فترة أخرى عشقت كتاب «خليها على الله» للأديب العظيم يحيى حقى.. فاصطحبته معى فى كل أسفارى لمدة ٤ أو ٥ سنوات، وفى مرحلة لاحقة حلَّ كتابه الجميل «كناسة الدكان» محل سابقه.. وانتزع منه موقعه من حقيبة السفر، كما جاء الدور فى بعض المراحل على الرواية الجميلة «ترانيم فى ظل تمارا» للأديب المبدع الراحل محمد عفيفى.

لكنه كما تتغير الأيام، يتغير الكتاب «النوبتجى» الذى أمد يدى إليه لاإراديًا كلما هممت بالسفر لأضعه فى حقيبتى إلى جوار الكتب الجديدة، فكأنه كتاب الدهر الذى لا أملّ الرجوع إليه كلما ضاقت نفسى.. أو كأنه «كتاب مفتوح» بصفة دائمة ينتظر الانتهاء من قراءته وإغلاقه، وكلما فعلت ذلك تذكرت ما رواه الفنان العالمى شارلى شابلن فى مذكراته من أنه اشترى كتابًا بعنوان «مقالات فى الفلسفة» ووضعه إلى جوار فراشه فظل ٤٠ عامًا يقرأ فيه من حين لآخر بضع صفحات دون أن يقرأه كاملا مرة واحدة فى حياته، أو أتذكر ما رواه أيضًا الزعيم الهندى جواهر لال نهرو من أنه اعتاد أن يقرأ فى أربعة كتب فى وقت واحد فيقرأ فصلاً من هذا وفصلاً من ذاك، فكانت النتيجة أن استغرق أحد الكتب منه ٥ سنوات لكى يقرأه كاملاً.

ولا عجب فى ذلك فهناك بالفعل كتب مفتوحة فى حياة الإنسان قد لا يغلقها طوال العمر.. وفى حياتى الشخصية فإن الكتاب المفتوح بصفة دائمة هو القرآن الكريم الذى «أنظر» فيه من حين لآخر دون أن أصل أبدًا إلى الشاطئ الآخر لبحره العميق.. وكثيرًا ما تذكرت وأنا أحاول فهم بعض معانيه، ما رواه الشيخ الرئيس ابن سينا من أنه قرأ ذات يوم كتابًا عما وراء الطبيعة فلم يفهمه فقرأه ٤٠ مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ولم يفهمه أيضًا، فيئس منه ثم خرج إلى السوق فرأى بائعًا يعرض عليه كتابًا.. فرفضه بجفاء فقال له البائع: إن الكتاب رخيص وصاحبه فى أشد الحاجة إلى ثمنه فاشتراه كارهًا ورجع إلى البيت فإذا به كتاب للفيلسوف الفارابى فى شرح الكتاب الصعب الذى استغلق عليه فهمه، وقرأه مترددًا فإذا به يفهم كل ما عجز عن فهمه من الكتاب الصعب فغادر بيته وتصدّق على الفقراء ابتهاجًا بفهمه له!

واصطحبت معى فى سفرى هذه المرة رواية «نقطة النور» للروائى المبدع الصديق الأستاذ بهاء طاهر، واكتشفت أنها صدرت فى يناير من هذا العام.. وأنه أهداها لى فور صدورها، لكنى لم أرها إلا منذ ثلاثة أسابيع فقط، فلقد كنت حين أهداها لى غائبًا فى سفر طال شهرين فى أمريكا، وتراكم البريد خلال غيابى، فلم تقع عيناى على هذه الرواية سوى مؤخرًا، ودهشت حين قرأتها.. وأسفت لتأخرى

فى اكتشافها ما يقرب من عشرة شهور، فهى تحفة فنية بالفعل.. بل لعلها من أجمل أعمال بهاء طاهر إن لم تكن أجملها على الإطلاق، ذلك أنها من هذا النوع من الأدب الذى قال عنه أحد النقاد وهو يصف بعض أعمال تشيكوف، إنه يُشعر الإنسان خلال قراءته بالمتعة.. والحزن!

فلعلى أستطيع أن ألخصها لك ذات يوم..

كما اصطحبت أيضًا مسرحية الكاتب الإيطالى الفائز بجائزة نوبل عام ١٩٩٧، داريو فو، وهى مسرحية «موت فوضوى قضاءً وقدرًا» من ترجمة الدكتور محمود على مراد، وكتاب «قراءات ومشاهدات» للأديب الكبير الأستاذ ثروت أباظة، أما كتاب الخدمة المستمرة فقد كان كتاب «التكوين» الذى يضم سيرًا ذاتية لعدد من المفكرين والأدباء بأقلامهم.

وكعادتى فلقد بدأت بقراءة الجديد، ورجعت كلما وجدت الفرصة إلى الكتاب القديم، وفى كل مرة أرجع فيها إلى هذا الكتاب الصديق أجدنى أتوقف غالبًا أمام نفس الصفحات التى استوقفتنى فيه من قبل وأعيد قراءتها من جديد كأنما أذكر نفسى بها وأخشى أن تضيع من الذاكرة.

ففى الفصل الذى كتبه الناقد الكبير وأستاذ الأدب العربى الراحل

شكرى عياد توقفت مرة أخرى أمام دروس الحياة التى علمتها له تجاربه وأمام قوله:

«تعلمت أولاً أن أثق برحمة الله وبلغت من هذه الثقة حدًا يقترب من الوهم بأن الله يولينى أنا بالذات عناية خاصة، وما أنقذنى من هذا الغرور إلا آيتان كريمتان: «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن».. وأحسبنى ما كنت أستطيع أن أمضى فى الحياة لولا الشعور المبهم بحضور شخصى لله فى حياتى، لكن ذلك الاعتقاد لو بلغ حد الاعتقاد بأن الله أفردنى باللطف من دون سائر خلقه لفسدت علىّ حياتى أيضًا، وهكذا فقد تعلمت أن الاعتدال حتى فى عاطفتى الدينية يجعلنى أقرب إلى الله».

انتهى الدرس الأول الذى تعلمه د. شكرى عياد.

فهل لاحظت فى الآيتين الكريمتين أن الله سبحانه وتعالى قد وصف إنعامه على عبده بأنه ابتلاء له ليعرف كيف سيكون عمله إذا أنعم عليه، ووصف تقديره عليه رزقه، أى تحديده له أو تضييقه، بأنه أيضًا ابتلاء ليرى كيف سيكون صبره على أقداره.. وبالتالى فإن كلاً من النعمة والمحنة ابتلاء من الله رب العالمين ينبغى للمرء ألا يفقد جنانه أمامه!

أما الدرس الثانى الذى تعلمه فهو كما يقول: «وتعلمت ثانيًا أن الصبر هو أس الفضائل كلها فمرتبته فى الأخلاق كمرتبة الصلاة فى العبادات.. «واستعينوا بالصبر والصلاة»، ولا أعنى بالصبر مجرد احتمال الأذى، فذلك وجه واحد من وجوهه ولعله أقلها شأنًا، أما أعظمها وأكرمها فالصبر على قضاء الحقوق والسعى فى طريق الخير وانتظار حسن العاقبة وإن طال المدى».

فما من مرة قرأت فيها هذه السطور، إلا واستعدت فى ذهنى الحديث الشريف الذى يقول: حُفَّت الجنة بالمكاره!

بمعنى أن الطريق إليها محفوف دائمًا بمغالبة النفس وكفها عن اتباع أهوائها وحملها على أن تؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى.

أما أصعب الدروس التى تعلمها الراحل الكبير فلقد قال عنها: «وتعلمت ثالثًا، وكان ذلك أصعب ما تعلمت من دروس، أن أشفق على من ظلمنى، فما وقع علىَّ ظلم إلا وتأملت حال من ظلمنى فوجدته أحق بالشفقة منى، فأجاهد وأنا أعمل لدفع الظلم عنى ألا أبلغ فى ذلك حد الانتقام».

وما أحوجنا نحن أيضًا لأن نتعلم مثله كيف نشفق على من ظلمنا.. والحق أننا نستطيع أن نفعل ذلك إذا تأملنا أحواله وأدركنا هول الخراب النفسى الذى يعشش فى أعماقه.. ولسوف نراه غالبًا

أحق بالشفقة منا.. ولقد ندعو له بأن تحميه السماء من شر نفسه.. وتحمى ضحاياه الذين ينفث فيهم كراهيته لنفسه ولكل البشر من شروره.

ولأن الشىء بالشىء يذكر فكثيراً ما تذكرت أيضًا كلما قرأت هذه السطور كلمة الفيلسوف الألمانى نيتشه التى يقول فيها: ليس بين الأحياء ولا بين الأموات من أكون على خلاف معه!

وهى كلمة حكيمة وتعنى أنه إذا اختصمك أحد وبغى عليك وقطع مودتك لغير ذنب جنيته فلا تسمم روحك بكراهيته.. ولا تشغل نفسك بلعنه وذمه وانتقاد أخلاقياته.. وذكر مثالبه، وإنما اعتبره ذرة من ذرات الكون الفسيح التى لا تدرى بوجودها، فلا تذكره فى أحاديثك قادحًا ولا مادحًا، ولا تسمع عنه مايسىء إليه.. أو ما يشرفه.. وإنما تجاهل وجوده تمامًا فى الحياة إلى أن يرجع عن غيِّه ويصلح أخطاءه معك أو يعتذر عنها.. واستخسر اللحظة العابرة التى يطوف خلالها بذهنك وادخرها للتفكير فيمن تحبهم لاستعادة وجوههم ورنين أصواتهم فى مخيلتك، فهؤلاء هم وحدهم مَن يستحقون أن يشغلوا فكرك ويملأوا خواطرك، ولا يستحق الآخرون لحظة واحدة من التفكير فيهم ولو بنية الإساءة إليهم أو الانتقام منهم.

أما الصفحة الأخرى التى أتوقف أمامها فى هذا الكتاب الرقيق

كثيرًا، فهى التى ينقل فيها المفكر الدكتور أنور عبد الملك عن الأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار قولها: «سعيد هو ذلك الذى يستطيع أن ينظر إلى حقيقة حياته فيسعد بها» وهى كلمة صادقة، إذ مَن منا يستطيع أن يتأمل بالفعل حقيقة حياته فيسعد بها ويرضى عنها؟

لقد كان الشاعر الشيلى بابلو نيرودا واحدًا من هؤلاء الذين «نظروا» إلى حياتهم فسعدوا بها، وقال حين أحس باقتراب أجله:

ـ أشهد أننى قد عشت!

يقصد أنه قد عاش الحياة التى أرادها وحقق الأهداف التى سعى وراءها ولم يبق إلا إنزال الستار!

فكم من البشر يستطيعون أن يقولوا ذلك؟

لقد أراد الشاعر الرومانسى الراحل محمود أبو الوفا أن يكتبوا على شاهد قبره حين يرحل عن الحياة هذا البيت من قصيدة له:

حسبى إذا الحب أضنانى فمت هوى

إذ يذكرونى قالوا كان إنسانا

وهو هدف جليل بالفعل أن يحيا الإنسان حياة شريفة هادفة تجعل الأحياء يتذكرونه بعد الرحيل فيقولون عنه: كان إنسانًا! لكن

«الجائزة» ليست سهلة المنال لكل من يطلبها، وإنما تتطلب الكثير والكثير من مغالبة النفس وردها عن أهوائها وعن إيذاء الغير، كما تتطلب تحرى العدل والرحمة والترفع عن المباذل والدنيا فى الحياة الشخصية.. فهل من راغب؟.

أما الدرس الأخير الذى أتوقف أمامه أيضًا فهو الذى تروى عنه أستاذة الأدب العربى الراحلة الدكتورة سهير القلماوى، فى سيرتها الذاتية حين تقول: إنها كانت تطمح لأن تصبح طبيبة كأبيها الجرّاح، لكن تعليم الطب لم يكن متاحًا للإناث فى مصر حين أنهت دراستها الثانوية، ولابد لكى تتعلمه من أن تسافر لدراسته فى انجلترا، وكانت فى السابعة عشرة من عمرها فلم يقبل والدها أن يسمح لها بالسفر قبل أن تبلغ سن الرشد، واضطرت هى للالتحاق بقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية القديمة لقضاء السنوات الأربع الباقية على بلوغها سن الحادية والعشرين، وكانت قد تلقت تعليمها الثانوى فى مدرسة أجنبية فأجادت الإنجليزية دون أن تجيد العربية بالقدر الكافى، ووجدت نفسها طالبة بقسم اللغة العربية بالجامعة فلم تحجم عن قبول التحدى، وانكبت على قراءة تفسير محمد فريد وجدى للقرآن بمساعدة أبيها وقراءة تفسير الزمخشرى، وعانت الأمرين فى فهم أسرار اللغة العربية وإجادتها، فكانت النتيجة أن تفوقت ونسيت حلم

دراسة الطب، وأصبحت أستاذة للأدب العربى ورئيسة لقسم اللغة العربية فيما بعد بكلية الآداب وأديبة مرموقة، وعن ذلك تقول: أول وأكبر درس تعلمته هو ألا أيأس أبدًا، وأن أتأقلم دائمًا مع ما فرض على وليس منه بد، والخيرة ـ كما يقولون ـ فيما اختاره الله، والمهم هو أننى لم أكن لأرضى إلا بأن أكون الأولى على الفرقة أو الثانية!

ياخسارة.. انتهت المساحة دون أن أحدثك عن بقية الصفحات التى أعيد قراءتها فى هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا.. فلعل الفرصة تسنح لاستئناف هذا الحديث ذات يوم قريب.. وشكرًا.





فى الصباح الباكر!

المثل الدارج يقول: «أخذوه من الدار للنار»!
بمعنى أنهم فاجأوه بالاستدعاء لمهمة عاجلة،
ولم يدعوا له الفرصة للتهيؤ لأدائها، فوجد نفسه
على الفور فى قلب المعركة بغير تدرج بين حالة
الاسترخاء التى كان عليها فى بيته، وحالة
الاستنفار التى قفز إلى أتونها دفعة واحدة!.

وأحسب أن هذا أيضًا كان حالى حين «أخذونى» من مطار أثينا إلى مقر رئاسة الجمهورية اليونانية لمقابلة رئيس الدولة، قبل أن أفتح حقيبة سفرى وأبدل ملابسى أو أنثر بعض الماء على وجهى لأزيل عنه وعثاء السفر!

لكن هكذا قضى برنامج زيارتى الأخيرة لليونان الذى أعدته لى وزارة الإعلام اليونانية، وأبلغنى به قبل السفر بيومين المستشار الصحفى بسفارة اليونان بالقاهرة الصديق قسطنطين باباس!

وحين فعل ذلك، لم أشا أن أفصح له عن هواجسى! وشكرته على ترتيبات الزيارة، واستعددت لمواجهة قدرى الذى اعتدته لأكثر من عشرين عامًا كلما سافرت إلى أوروبا! فمعظم رحلات الطيران المتجهة إليها تقلع من القاهرة فى الصباح الباكر، وظروف عملى تضطرنى كلما اعتزمت السفر أن أحتجب فى البيت اليوم السابق له لإنهاء واجباتى الصحفية قبل الرحيل، فتكون النتيجة دائمًا هى أن أركب الطائرة فى الصباح الباكر، ولما يُتحْ لى أن أغفو لأكثر من ساعة قبل السفر.. وفى أحيان كثيرة أخرج إلى المطار بلا غفوة نوم واحدة، معتمدًا على أن يومى الأول من الرحلة يكون غالبًا خاليًا من أية ارتباطات فى النهار، فأعوض فيه ما فاتنى من نوم.

فما العمل هذه المرة.. وبرنامج زيارتى يقول إن الطائرة ستصل إلى أثينا فى الحادية عشرة صباحًا، وإن مندوبة من وزارة الإعلام

سوف تصطحبنى من المطار إلى الفندق لأضع حقيبتى فيه، وأتوجه معها إلى رئاسة الجمهورية. هكذا. «من المطار إلى النار». ؟!

«قررت» أن أبذل غاية جهدى هذه المرة للانتهاء من واجباتى الصحفية فى موعد يسمح لى باستراق ساعتين على الأقل من النوم - لكيلا تفاجئنى غيبوبة النوم خلال لقائى برئيس جمهورية اليونان، فيحملنى رجال المراسم من مكتبه قبل أن يزعجه «شخيرى»!

وجلست إلى مكتبى فى البيت، وبدأت الكتابة بإصرار وجدية، وكلما استشعرت بعض التراخى أو الرغبة فى الراحة استدعيت من الذاكرة البعيدة قصة الصبى الصينى التى قرأناها فى كتاب المطالعة القديم بالمدرسة الابتدائية، وكثيراً ما عيَّرونا بضعف إرادتنا وقلة جَلَدِنا على المذاكرة بالمقارنة به.

فقد تفتق ذهنه عن فكرة مبتكرة لكى يواصل المذاكرة خلال الليل بغير أن يغلبه النوم.. فربط خصلة من شعره الطويل بخيط فى مسمار فى الحائط الذى يجلس أمامه.. وانهمك فى الدرس.. وكلما غلبه النوم وتدلت رأسه على صدره، رفعها الخيط المشدود للمسمار، وأعاده إلى التنبه ومواصلة الدرس!

فرحت أغالب أنا أيضًا التعب، وكلما مالت رأسى على كتفى، تذكرت موعد رئيس الجمهورية اليونانية فى اليوم التالى، وما ينبغى

لى أن أكون عليه من حضور الذهن وتنبه الوعى خلال لقائى به، فأستعيد حماسى وأواصل الكتابة بلا كلل!.

وبالرغم من كل ذلك فلم أستطع الانتهاء من عملى قبل الثالثة صباحًا، ولم تسمح لى حالة التوتر واشتعال الذهن التى تصاحبنى خلال الكتابة وبعدها بأن أقتنص لحظة واحدة من النوم الخالص.. ونهضت من فراشى ـ ولا أقول من نومى ـ بعد ليلة بيضاء أخرى بلا نوم، لأركب الطائرة إلى أثينا.. وفى مطارها وجدت فى انتظارى السيدة «خريسولا» مندوبة وزارة الإعلام، والزميل «عبد العظيم درويش» مدير مكتب الأهرام هناك.. ولم تدع لى «خريسولا» النشيطة أية فرصة لالتقاط الأنفاس، وما إن وصلنا إلى فندق «جراند بريطانيا» الذى سأقيم به حتى أودعت حقيبتى المغلقة، وسرت إلى جوارها على الأقدام إلى مقر رئاسة الجمهورية.. فالمسافة بين الفندق والمقر بسيطة بمقاييس «خريسولا»!.. وقطعها على الأقدام يوفر نصف الوقت عما لو ركبنا سيارة إليها وسط زحام أثينا ـ التى تعد من أكثر العواصم الأوروبية ازدحامًا بحركة المرور، حتى لقد خصصوا يومًا لسير العربات ذات الأرقام الفردية، ويومًا آخر لسير العربات ذات الأرقام الزوجية.. فكانت النتيجة أن أصبحت معظم الأسر المتوسطة فيها تملك سيارتين، أرقام إحداهما زوجية، والأخرى فردية! كما انتشرت فيها الدراجات البخارية بكثرة عجيبة لم أشاهدها

فى أية عاصمة أوروبية أخرى، لأنه مسموح لها بالحركة فى شوارع العاصمة بغض النظر عن أرقامها!..

وفى شارع هادئ تظلله أشجار اللارنج بثمارها الصفراء التى تتساقط بكثرة على الأرض، ويؤول مصيرها إلى صناديق القمامة، لأن اليونانيين لا يأكلونها ـ دخلت مع «خريسولا» مقر رئاسة الجمهورية من باب خلفى لا يقف عليه سوى جندى واحد.. وبعد حوار قصير بينها وبينه سمح لنا بالدخول بغير الاطلاع على هُويتى.. ولا المرور عبر بوابة للكشف عن الأسلحة والمعادن.. ولا إجراءات أمن معقدة! واستقبلنى أحد رجال المراسم مبتسمًا، وقادنى لمكتب رئيس الجمهورية السيد «كونستانتينوس ستيفانوبولس» وهو يذكرنى بما سبق أن لفتت خريسولا انتباهى إليه، وهو أن لقائى مع رئيس الجمهورية ليس لإجراء حوار معه للنشر، لأنه لا يجرى حوارات صحفية أبدًا، وإنما للتحية والترحيب وتبادل الرأى.. ويحق لى أن «أشير» إلى مادار بيننا من مناقشات، ولكن دون أن أنسب إليه أية تصريحات مباشرة!

ودخلت إلى مكتب رئيس الجمهورية اليونانية، وتقدمت منه مصافحًا ومحييًا.. ولاحظت خلال المناقشة معه عمق ثقافته وسماحة طبعه، وجاذبيته السياسية التى أهلته لأن يُجْمع على ترشيحه لدورة رئاسية جديدة الحزب الحاكم وحزب المعارضة فى نفس الوقت.. ربما

لأول مرة في تاريخ اليونان الحديث.. وهو ما تحقق بالفعل عقب زيارتى له بأيام.. ففاز فى انتخابات الدورة الثانية له من أول انتخاب، وبغير إعادة مع المنافسين.. ودار الحديث بيننا عن مصر والموقف الدولى والعلاقة بين اليونان وتركيا، وانبهاره خلال زيارتيه السابقتين لمصر بالأقصر وآثار وادى الملوك ومعابد الكرنك.. واستغرقت المقابلة ـ على غير المتوقع فى مقابلات المجاملة المماثلة ـ ٤٥ دقيقة.. وغادرت مكتبه وأنا أشكر «الصبى الصينى» على ابتكاره القديم الذي نفذته مع نفسى خلال المقابلة.. معنويًا وليس شكليًا.. ومررت خلال عودتى للفندق ـ مشيًا على الأقدام مرة أخرى مع «خريسولا» النشيطة ـ بمقر رئاسة الوزارة اليونانية، وشاهدت تجمع رجال الإعلام ومحطات التليفزيون بكاميراتهم عند مدخلها فى انتظار خروج رئيس الوزراء «سيميتس كونستانتينوس» ليحاصروه بالأسئلة قبل أن يركب سيارته.. ولم ألحظ مثل ذلك عند مغادرتى لمقر رئاسة الجمهورية ـ الذى لا يقيم فيه رئيس الدولة ـ على عكس المفروض حيث يفضل الرجل الإقامة فى شقة بعمارة مزدحمة بالسكان بإحدى ضواحى أثينا، لايقف على بابها سوى جندى واحد.. وهو نفس الحال الذى شاهدته حين مررت بعد ذلك بعمارة سكنية أخرى فى قلب أثينا، فلقد رأيت أمامها جنديًا واحدًا، وقيل لى إن رئيس الوزراء يقيم بهذه العمارة مع غيره من السكان! فالأمور فى هذه الناحية الأمنية أكثر بساطة فى اليونان منها فى دول أخرى.. ولم

أعجب لعدم تواجد رجال الإعلام أمام مقر رئاسة الجمهورية، فى حين يتزاحمون أمام مقر رئاسة الوزارة.. لأن السلطة الفعلية فى اليونان فى يد رئيس الوزارة كما هو الحال فى معظم الديمقراطيات الغربية ـ ما عدا فرنسا.

وحين وصلت إلى الفندق وتركتنى «خريسولا» ـ على وعد باللقاء فى صباح اليوم التالى لتصاحبنى إلى احتفال افتتاح أول مترو للأنفاق فى أثينا ـ حللت خصلة شعرى المربوطة إلى مسمار الوعى والإرادة، ودخلت فراشى، عازفًا ـ رغم الجوع الشديد ـ عن تناول الغداء واستسلمت لنوم ثقيل.. وبعد ثلاث ساعات تنبهت من نومى، وبدأت زيارتى الحقيقية لليونان!

اليونان ـ كم مرة جئت إليها من قبل؟!

وكم مرة خُيِّل إلىَّ حين أتمشَّى فى أثينا أننى قد أصادف فى شوارعها الفيلسوف «سقراط» يمشى بين تلاميذه، وهو يمارس أسلوبه الفريد الذى عرف بالتهكم السقراطى، ومن خلاله يصطنع الجهل مع من يحاوره، ويحاول إشعاره بأنه أقل منه ذكاءً.. إلى أن تكشف المحاورة للشخص الآخر فساد منطقه.. أو وهو يناقش كل من يقابله فى الطريق ويرى أنه يتعلم بهذه الطريقة من الآخرين.. لأن «أشجار الريف ليس لديها ما تعلمنى إياه!».. كما كان يقول! وإنما البشر هم الذين يمكن أن يتعلم منهم ويعلمهم!

بل.. وكم مرة توقعت خلال تجوالى فى أزقة حى بلاكا وشوارع كولانالى - أننى قد ألتقى بأحد هؤلاء اليونانيين الطيبين الذين عرفتهم خلال الصبا فى مدينتى الصغيرة دسوق، وقد كانوا يملكون فيها المقاهى والمطاعم والفنادق ثم رجعوا إلى بلادهم مع بداية السبعينيات!

اليونان دولة متوسطية.. يبلغ عدد سكانها ١٠ ملايين و ٦٦ ألف نسمة فقط وقد أشار رئيس الجمهورية اليونانية فى حديثى معه إلى أن إحدى أهم مشاكل بلاده الآن هى ضعف معدل المواليد، الذى لا يزيد عن ١,١٪، على عكس الحال «عندكم»!

وهى تتكون من أكثر من ٨ آلاف جزيرة، ليس معمورًا منها سوى ١٠١ جزيرة فقط. والبقية جزر غير آهلة بالسكان وصخرية، وتستطيع - إذا أردت - أن تشترى واحدة منها وتدفع ثمنها للحكومة، كما فعل من قبل المليونير اليونانى الشهير «أوناسيس».. ومع ذلك فهى تستقبل كل سنة حوالى ١٥ مليون من السياح الأوروبيين الذى تستهويهم جزرها وشواطئها ونمط الحياة المختلف فيها عن بقية دول أوروبا.

و«التافرنا» - أو المطعم اليونانى - هو رمز الحياة فى اليونان.. ففيها أكبر عدد يمكن تصوره - بالمقارنة بعدد السكان - من المطاعم والمقاهى والبارات.. ومقاهى أثينا عامرة دائمًا بالرواد فى عز النهار

وخلال ساعات العمل. واليونانى يخرج من عمله إلى البيت فيتناول طعام الغداء..وينام بعض الوقت، ثم يخرج من بيته فى المساء إلى «البار» أو «التافرنا» كل ليلة تقريبًا.. وهو يعشق السهر، ويتأخر عن موعد العمل فى الصباح فى كثير من الأحيان، لأنهم من عشاق الحياة والطعام والشراب على حساب أى شىء آخر! لكن الأسرة اليونانية مازالت شديدة الترابط وتنفر من فكرة استقلال الأبناء بحياتهم فى مطلع الشباب.. كما يفعلون فى دول أوروبية أخرى.. ومازال كثير من قيمها العائلية شبيهًا بالقيم الشرقية فى بعض الوجوه.. غير أنك تشعر بالرغم من ذلك ـ وبالرغم من شهرة اليونان كدولة سياحية كبيرة ـ بانغلاق اليونانيين على أنفسهم، أكثر مما تشعر بذلك بالنسبة لشعوب أوروبية أخرى.. كما تلمس بسهولة أنهم ـ رغم تمتعهم بالحياة بكل السبل ـ من أكثر شعوب أوروبا ترددًا على الكنيسة.

وفى صباح اليوم التالى شهدت مع «خريسولا» حفل افتتاح مترو الأنفاق بأثينا.. و«سمعت» ـ ولا أقول فهمت! ـ خطب رئيس الوزراء والوزراء التى توالت باللغة اليونانية، قبل أن يختتمها رئيس الجمهورية بخطبة ألهبت حماس الجمهور وتصفيقه.. حين تحدث عن الإرادة اليونانية التى نفذت مشروع مترو الأنفاق بالرغم مما قيل من إنه أكبر من أن تنفذه دولة كاليونان.. وتأكدت لى فكرتى عن جاذبيته السياسية، وقدرته على إثارة إحساس المواطنين بالكرامة

الوطنية.. أما «خريسولا» فإنها لم تصدقنى فى البداية حين قلت لها فى طريق العودة من الحفل: إن لدينا فى القاهرة «مترو» للأنفاق منذ حوالى ١٥ عامًا، وإنه قد أصبحت له الآن ثلاثة خطوط!.

فلقد كان احتفالهم بمترو الأنفاق احتفالاً شعبيًا صاخبًا كأنه مناسبة وطنية كبرى.

ولقد مضت أيام الزيارة القصيرة.. فى اللقاءات المماثلة، واستطلاع الحياة فى العاصمة اليونانية.. وإعادة زيارة المعالم الأثرية الشهيرة، كاستاد أثينا الذى أقيمت فيه أول دورة أوليمبية فى العصر الحديث، وزيارة معبد «دلفى» القديم الذى كانت تعلوه العبارة الشهيرة التى اتخذها سقراط شعارًا لنفسه وهى: «اعرف نفسك بنفسك!».. ولقد سبقت لى محاولة زيارته قبل ٥ سنوات، وسافرت ٣٥٠ كيلو مترًا من أثينا إليه. فوجدت الطريق الصاعد إلى المعبد مغلقًا بسبب إضراب العاملين بقطاع الآثار - واليونان بالمناسبة من أكثر الدول الأوروبية تعاملاً مع الإضرابات والمسيرات السلمية المطالبة بمطالب عمالية.. فصممت هذه المرة على زيارته، ونظمت لى وزارة الإعلام اليونانية رحلة إليه مع فوج سياحى صغير.. وقاومت تصلب المفاصل من أثر قلة الحركة والمشى، وصعدت مع الصاعدين إلى قمة الربوة التى يقع المعبد فوقها.. واستمعت إلى شرح المرشدة، وخيالى يسرح إلى قمة جبل الأوليمب التى كانت

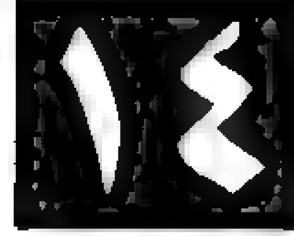
مقام الآلهة اليونانية، وميدان معابثاتهم لبعضهم البعض وللبشر فى الأساطير القديمة!

وشكرت للصبى الصينى إرادته التى ألهمتنى الإصرار على صعود ربوة معبد دلفى العالية، بالرغم من إجهادها لى.. ولم أعتب على هذه الإرادة عجزها عن أن تسعفنى بنفس القدر لكى أصعد هضبة معبد الأكروبول ودرجاتها التى تبلغ ١١٠ درجات.. واستسلمت لحقائق الزمن واكتفيت من الزيارة هذه المرة بالجلوس بمقهى فى سفح الأكروبول.. وتأمل أطلال المعبد من بعيد، واسترجاع ذكرياتى عنه حين صعدت إليه نفس هذه الدرجات العالية فى عام ١٩٧٨ وتجرعت القهوة اليونانية التى تتسم بخفة تركيزها فى المقهى منتظراً عودة الفوج الذى صاحبته وصعد نشطاؤه إلى المعبد، لنعود معًا بالأتوبيس السياحى إلى وسط المدينة. وتعلمت من درس زيارتى السابقة لليونان منذ خمس سنوات ألا أخطئ وأطلب من جارسون المقهى القهوة «التركية»، لكيلا أتلقى منه نظرة غضب صامتة لمجرد الإشارة إلى تركيا فى الحديث.. ولو على سبيل القهوة!

فالعداء التاريخى بين البلدين قديم.. وإن كانت العلاقات السياسية بينهما قد بدأت تتجه الآن إلى التحسن ـ كما قال لى الرئيس اليونانى فى حوارى معه.

وما أجمل أن يجىء يومٌ ـ ولو فى أحلام اليقظة!. يحل فيه السلام والمحبة بين جميع البشر.. بغير استثناء!.


شقة بالدور الثاني
للبيع أو للإيجار



صور من حياتهم:
الطيور الخرساء!

إلام تدوم هذه الحال؟
إن كل سفينة تؤوب فى النهاية إلى مرفأ آمن يحميها من العواصف والأنواء.. فمتى تؤوب سفينته إلى شاطئ الأمان؟ ولماذا تحكم عليه أقداره بأن يحيا دائماً فى مهب الرياح؟ وهل تكون هذه اللافتة الكرتونية الصغيرة التى لمحها على باب عمارة قريبة فى طريق العودة إلى البيت بداية الخلاص؟

إنها لافتة متواضعة مكتوب عليها بخط نسائى: شقة ١٢٠ متراً فى الدور الثانى للبيع أو الإيجار بالأثاث، تساءل والمصعد يرتقى به الأدوار إلى مسكنه فى الدور الخامس.. ترى ماذا دفع الأسرة مالكة هذه الشقة لعرضها للبيع أو التأجير؟!.. هل هو نداء الهجرة إلى الخارج أم ترى أنها قد اشترت شقة أكبر وأجمل فى حى أكثر رقيًا؟

إن مواصفاتها المبدئية مثالية بالنسبة إليه.. فهى فى نفس الحى الذى نشأ فيه وشهد أيام سعادته وشقائه.. وفى نفس الشارع الذى يقع فيه مسكنه الذى ظن حين اشتراه قبل عشرين عامًا أنه سيكون عش هنائه وسعادته.. وهكذا يحقق المعادلة الصعبة التى لم يجد لمشكلته حلاً سواها.. وهى أن يكون «قريبًا» و «بعيدًا» فى نفس الوقت، قريبًا من الابنة الغالية التى لولاها ما احتمل الحياة خلال السنوات الماضية.. وبعيدًا عن مصدر النكد الدائم الذى يجد نفسه متهمًا أمامها طوال الوقت بما يعرفه أو لا يعرفه من أخطاء.. متهمًا بأنه قد «فعل» ومتهمًا بأنه «لم يفعل» بأنه «قال» وبأنه «لم يقل».. بأنه قد جاء.. وبأنه لم يجئ، وأيًا كان الاختيار فالنتيجة واحدة وهى أن يكون دائمًا فى حالة دفاع عن النفس.. وحالة الاسترضاء والاعتذار عن أخطاء وخطايا لا نهاية لها، وحبة القلب الصغيرة ترقب وتفهم كل شىء برغم سنواتها الخمس عشرة ـ وتلوم أمها بنظراتها أمامه وتنفجر فيها فى غيابه كما سمع من بعض أقاربه.. وتمسح بيدها على رأسه حين تراه جالسًا فى شرفة المسكن ساهمًا، وتقول له

من حين لآخر فى عطف مكتوم «معلهش يا بابا»، فيفتعل المرح معها ويقبلها ويسألها عن صديقاتها ويستمتع بسماع أخبارهن واحدة بعد الأخرى ويتعاطف على البعد مع «رنا» يتيمة الأم التى تستذلها زوجة أبيها وتسىء معاملتها فلا تجد سوى أحضان الأب العاجز عن مواساتها بغير الدمع وبغير الرجاء لها أن تحتمل حياتها لكى تظل السفينة طافية فوق الماء حرصًا على إخوتها الصغار من زوجته.

ويشعر بحب الدنيا كله على البعد أيضًا للسيدة فضيلة «أم» صديقتها الأخرى «نشوى» وماهى بأمها وإنما هى زوجة أبيها بعد أمها الراحلة أيضًا، لكن الله قد غرس الرحمة بابنة زوجها فى قلبها فكانت أمًا حقيقية لها، ولم تشعرها لحظة واحدة بأى تمييز بينها وبين إخوتها غير الأشقاء، فلم يكن عجيبًا أن تشعر نشوى تجاهها بأنبل المشاعر.. فلا تشير إليها فى الحديث العابر سوى بعبارة «ماما» الصادرة من القلب.

ويعجب بجمع والدة «هبة» بين الحزم معها والعطف عليها والعناية الشديدة بكل أمورها.. فإذا سئلت عن أسباب شدتها مع ابنتها الحبيبة وهى مثال للالتزام الدينى والتفوق الدراسى، أجابت باسمة بأنها تعوض بذلك حنو أبيها الزائد عليها خوفًا عليها من أن يفسدها التدليل!

وكم يضحك من أعماق قلبه على طرائف «بسمة» المعروفة بين

زميلاتها بخفة روحها وابتسامتها الدائمة وكراهيتها للأحزان والهموم، حتى استحقت عن جدارة مايقوله عنها مدرس اللغة العربية بمدرستهن الثانوية من أنها «اسم على مسمى»!

وكم وجد أيضًا فى هذا التفاهم العميق بينه وبين ابنته الحبيبة بعض السلوى وبعض العزاء.. وكم تساءل متحسرًا: ولماذا لم تنشأ مثل هذه الصداقة الحميمة بينه وبين شريكته فى الحياة وقد كانا ذات يوم حكاية تحكى بين زملاء الكلية؟ وأين اختفت تلك الفتاة الرقيقة الباسمة التى تشارب معها كؤوس الحب فى العامين الأخيرين من الدراسة الجامعية وتوجا قصتهما معًا بالزواج؟ وحلت محلها تلك السيدة العبوس المتجهمة على الدوام؟ وكيف تسللت الكآبة إلى روحها عامًا بعد عام حتى لم يعد يذكر من ملامح الوجه الباسم القديم إلا طيفًا كأطياف الذكرى؟ إنها تقول إنه هو الذى تغيَّر.. ولم يعد العاشق القديم الذى لا يألو جهدًا لإسعاد محبوبته.. وهو يرد على «الاتهام» بأن إدمان النكد واختلاق أسبابه لأوهن الأعذار، وانشغالها الدائم بأمور الحياة المادية على حساب علاقتها به، واستسهالها المستمر لإلقاء اللوم عليه فى كل الأشياء قد أخرس طيور الحب فى قلبه، فلم تعد تغرد أو تعبر عن نفسها، لكن الطيور مازالت على قيد الحياة وإن كانت الآن خرساء، وعليها أن تبذل بعض الجهد لكى تستنطقها من جديد قبل أن تفقد القدرة نهائيًا على البوح وهى لا تبذل أى جهد، سوى فى المجال الوحيد الذى لا تجيد

سواه وهو الجفاء والخصام والاتهام الناطق أو الصامت له. . وانتظار أن تجيء الخطوة الأولى دائمًا من جانبه، فحتَّام يستطيع احتمال حياته على هذا النحو؟

وهل يستطيع حبه لابنته وحده أن يحمى عقدًا لا يبذل طرفاه الجهد الكافى للمحافظة عليه من الانفراط؟

لقد حلّ الجفاء الصامت بينهما منذ أمد بعيد. . ولم يعد يحكم تصرفاته معها إلا رغبته فى اتقاء اللوم والحساب. . أما الحب فقد توارى تحت تراكمات الجفاء. . فهل تكون هذه اللافتة الكرتونية الصغيرة هى الأمل والخلاص؟ وهل تتفهم الابنة الغالية دوافعه لما سيفعل وتغفره له؟

لقد فكر فى هذا «الحل» أكثر من مرة. . ولم يُقعده عن الإقدام عليه سوى رغبته فى أى يكون قريبًا من ابنته فى السنوات الحرجة من عمرها. وقال له صديقه الطبيب النفسى المعروف بأفكاره المتحررة من القيود والأغلال التى يقيِّد هو نفسه بها: إن «أبًا سعيدًا» فى حياته الشخصية أفضل من الناحية المعنوية لابنته المراهقة من أب مهموم على الدوام وليس قادرًا على الابتهاج بالحياة.

وشجعه ذات يوم على الانفصال عن زوجته لفترة مؤقتة عسى أن يشعرها ذلك بالطريق المسدود الذى تدفع حياتها الزوجيه إليه. . لكنه لم يتحمس للنصيحة، ولم يستطع أن يتخلى عن قناعته بوجوب

التضحية بكل الاعتبارات من أجل سعادة الأبناء.. وقال لصديقه فى ذلك اليوم: لا أريد أن يأتى خاطب ذات يوم قريب لطلب يد ابنتى فيجدنى منفصلاً عن أمها بالطلاق.

وهكذا واصلت السفينة إبحارها الصعب فى بحر من القلاقل والأنواء.

لكن يبدو أنه لابد مما ليس منه بد..

فليكن الحل الوسط إذن هو أن يصنع لنفسه حياةً أخرى أقل عناء من حياته الحالية مع احتفاظه بكيان الأسرة أملاً فى تحسن الأحوال، خاصة وأن زوجته لا ترغب فى الطلاق، ولا تقدر معنويًا على تحمل تبعاته. ولقد صارحها منذ فترة قريبة بعزمه على الانتقال إلى بيت شقيقته الأرملة لبعض الوقت.. فصرخت فيه محذرة من هذا الحل الذى يثير شماتة أخته الأرملة التى تتوهم أنها لا تحمل لها الود لكثرة لومها لها على جفائها لأخيها.

فأجَّل الفكرة بعض الوقت.. إلى أن لمح هذه اللافتة الصغيرة فى طريق عودته للبيت اليوم.

فليكن الحل إذن هو الانفصال المكتوم عن الجميع حتى عن أقرب الأهل إليه، وليأمل فى أن تكون الشروط المادية لهذه الشقة القريبة فى حدود احتماله لكى يواصل حياته السابقة كما هى، فيرجع للبيت فى موعد الغداء، ويقضى بعض الوقت مع ابنته، ويتابع دراستها

وشئونها ويسمع لها ويتحدث إليها.. ويلبى مطالب الأسرة، ثم يهجع إلى واحته الجديدة فى المساء فيخلو إلى نفسه وأفكاره وآماله فى الحياة وأحلام يقظته بالسعادة التى لا تفارقه هذه الأيام..

وبعد الأصيل ارتدى ملابسه فى صمت وهو يفكر كيف سيكون وقع النبأ على الابنة الغالية حين تعرف به.. أما «الأخرى» فإنه يعرف جيداً أنها ستبدى الاستهانة وعدم الاكتراث.. فما إن يدير ظهره لها ويغادرها حتى تنفجر فى البكاء والولولة وتتهمه بالجحود وانعدام الوفاء والنكران.. وقطع عليه أفكاره صوتها وهى تسأله فى نبرة تجمع بين الجفاء والفضول فى نفس الوقت: إلى أين فى مثل هذه الساعة؟

فتفادى النظر إليها، وأجاب وهو يسرع الخطى إلى باب المسكن قبل أن تخرج ابنته من الحمام وتتساءل عن أسباب خروجه المفاجئ: مشوار قريب..

ثم غادر المسكن متجهاً على الأقدام إلى العمارة القريبة وهو يدعو ربه أن يترفق به أصحاب الشقة المعروضة للبيع أو الإيجار وألا يحبطوا بمطالبهم المادية.. حلمه المتواضع.. فى راحة البال!


مطار دمشق الدولي
قطب

١٥

الحب من النظرة الأولى!

يا إلهى.. لماذا لا أشعر بأى غربة وأنا أتجول فى شوارع هذه المدينة؟

إننى أزورها لأول مرة.. ومع ذلك فإنى أشعر بأننى قد جئت إليها من قبل مراراً وتسكعت فى شوارعها وحواريها طويلاً حتى ألفتها وألفتنى؟

هل هناك حقًا «حب من النظرة الأولى» للأماكن، كما هو الحال بالنسبة للأشخاص على حد زعم البعض؟

وإذا كان «حب النظرة الأولى هو قرين الجنون»، لأنه يتناقض مع حقيقة أن الحب وليد تفاعل بطيء للمشاعر والأحاسيس الطيبة تجاه أحد الأشخاص، كما يقول لنا مؤلف القصة الأمريكية القديمة «سراب الحب»، فماذا يمكن أن نسميه بالنسبة للأماكن؟

ألسنا ندخل مكانًا لأول مرة فى حياتنا فيراودنا شعور مبهم غامض بأننا قد زرناه ورأيناه من قبل؟ وألا نشعر بالألفة تجاه مكان نراه لأول مرة.. ونشعر بالضيق والاختناق فى مكان آخر للوهلة الأولى؟

إن بعض الشعوب الشرقية التى تؤمن بتناسخ الأرواح تفسر إحساس المرء بأنه قد رأى مكانًا يزوره لأول مرة من قبل، بأنه «دليل» على أنه زاره وعاش فيه قبل ذلك فى حياة سابقة على حياته الحالية.

لكننا لا نؤمن بتناسخ الأرواح، ولا بحلول الروح بعد وفاة الجسد فى جسم آخر، فمن أين يجيئنا إذن هذا الشعور الغامض؟

لقد أحسست به حين رأيت دمشق لأول مرة، وتجولت فى شوارعها وجلست فى مقاهيها الشعبية، وتنقلت بين أرجائها.

وتذكرت وأنا أتجول فى الشوارع بألفة عجيبة، أن هناك موعداً بينى وبين هذه المدينة قد تأخر تنفيذه ثلاثين عامًا أو تزيد!

فلقد كُلفت ذات يوم بمهمة صحفية فى دمشق.. وحصلت على تأشيرة الخروج حين كان الحصول عليها فى مصر فى ذلك الوقت يتطلب «نفوذًا» وتوصيات خطيرة، وأنهيت إجراءات السفر وأعددت حقيبتى وأوراقى، وحملت كل ذلك وتوجهت إلى «الأهرام»، لأتلقى من رئيسى المباشر فى ذلك الحين آخر توجيهات العمل، فما أن دخلت عليه وجواز سفرى وتذكرة الطائرة فى يدى حتى فوجئت به يطلب منى إعادة حقيبة الملابس إلى البيت، لأن المهمة قد ألغيت فجأة!

ولأننى إنسان قدرى بطبيعتى.. فلقد تقبلت الأمر ببساطة، واستدرت لأنصرف.. فتصور أننى حزين لإلغاء السفر فى اللحظة الأخيرة.. وطيَّب خاطرى وحاول أن يهون علىّ الأمر بقوله إنه سيعوضنى قريبًا عن المهمة الملغاة بمهمة أخرى فى مكان أفضل، وفوجئ بى أقول له، بلا أى أثر للضيق فى نفسى: ومن أدرانى أننى كنت سأسعد بهذه الرحلة أو سأرجع منها سالمًا؟

وانصرفت إلى عملى مبتهجًا وكأننى قد فزت بجائزة غير متوقعة!

ولاعجبْ فى ذلك فلقد اعتدت دائمًا ألا آسى على شىء فاتنى، مؤمنًا بحسن اختيار الله سبحانه وتعالى لى.. وعند السفر على وجه التحديد فإننى لا أكتئب إذا فاتنى موعد قطار أو طائرة أو سيارة، ولربما شعرت حينذاك بما يشبه الارتياح الباطنى لعدم إدراكى له.. وكأنما قد نجوت من شىء مجهول كان يترصدنى.. ولو لم يكن الأمر كذلك ليسره لى.

لكنى لم أتصور بالرغم من ذلك أن تتوالى كل هذه السنين التى سافرت خلالها إلى أركان الأرض الأربعة، بغير أن تتيح لى الظروف القيام بهذه الرحلة المؤجلة إلى دمشق.. وإتمام التعارف المعلق بينى وبينها!

وحين اتصل بى المستشار الإعلامى للسفارة السورية فى القاهرة، ليبلغنى بدعوة وزير الإعلام السورى لزيارة سوريا وحضور الاحتفال بالذكرى الأولى لرحيل حافظ الأسد، وجدتنى مهيئًا نفسيًا لتلبية الدعوة ومستعدًا لها.. وفى أرض مطار القاهرة التقيت به لأول مرة وبالسفير السورى ثم بدأت الرحلة.. ساعة وعشرون دقيقة فقط وهبطت الطائرة فى مطار اللاذقية بشمال

سوريا.. المطار صغير.. وهناك طابور من السيارات السوداء ينتظر المدعوين، وفى صالة كبار الزوار استرحنا لفترة قصيرة تعرفنا خلالها على المستقبلين، ثم توجه الركب إلى فندق ميريديان.

فى الطريق إلى المدينة ألحظ الخضرة فى كل مكان.. وأشعر بأننى لم أغادر بعد مصر.. فالوجوه مألوفة لى.. واللهجة محببة ومفهومة.. وطبيعة الحياة والشوارع متشابهة. فى غرفتى بالفندق كان أول مافعلته هو أن اتصلت بصديقى ناجى المهندس المصرى الذى يعمل مع شركة يابانية تنفذ مشروعًا لتصنيع القمامة فى شمال سوريا، وكان حين تلقى اتصالى على تليفونه المحمول فى مدينة حمص على بعد نحو ١٦٠ كيلو مترا من اللاذقية، فلم تمض ساعتان حتى كان يطرق علىّ باب الغرفة ونلتقى بعد الغياب، ولم تمض دقائق أخرى حتى كنا نتجول فى شوارع المدينة الساحلية التى تشبه الإسكندرية إلى حد بعيد ونشرب الشاى «الخمير»، أى المغلى عدة مرات، فى مقهى شعبى بالمدينة ونلتهم طبق فتة الحمص الشهى الذى تعرفت عليه لأول مرة فى أحد المطاعم المطلة على البحر، ويطول بنا السهر فى مسكنه مع زميل سورى له حتى قرب الفجر.

ثم يتكرر اللقاء فى اليوم التالى.. ويمضى الوقت سريعًا، ويجىء موعد الاحتفال فى قرية القرداحة التى تبعد نحو ٢٦ كيلو مترًا عن اللاذقية وهى مسقط رأس الرئيس السورى الراحل.. ومثواه الأخير.. ونشهد الاحتفال فى الساحة المجاورة للضريح، ويستغرق ٤ ساعات تتوالى خلالها كلمات التأبين.. وأرى فى المكان وجوهًا مصرية وعربية عديدة.. وأجدنى أمام الشيخ الشاب الذى تتصدر صورته نشرات الأخبار فى كثير من الأحداث الشيخ حسن نصر الله أمين عام حزب الله، فأصافحه محييًا، وألمس سماحته وتواضعه وجاذبيته الشخصية. وأشعر بالرغبة فى تحية كثيرين، لكن ظروف المكان ووجود رئيس الدولة وأركان الحكم واعتبارات الأمن تقيد الحركة إلى حد كبير، ونركب الطائرة فى يوم حار إلى دمشق لأتمم الموعد القديم بينى وبينها.. فلا تمضى ساعة وعشر دقائق حتى نكون قد هبطنا فى عاصمة الأمويين التى كثيرًا ما رسمت لها فى مخيلتى صورًا موشاة بنقوش التاريخ وحكاياته..

إننى أعرف الأماكن عادة برموزها التاريخية والدينية والفكرية، وحين أزور بلدًا قرأت طويلاً عنه أو قرأت بعض أعمال مفكريه وفلاسفته وأدبائه.. أو تذوقت بعض أعمال فنانيه المشاهير، فإنه

يخيل إلىّ أننى سألتقى بهؤلاء الأشخاص التاريخيين فى شوارعه، فإذا زرت سالسبورج فى النمسا خُيل إلىَّ أننى سألتقى مصادفة بالموسيقار موزار فى أحد الشوارع.. وإذا زرت أمستردام خُيل إلىَّ أننى سألتقى بالفنان رمبرانت فى بيته المطل على إحدى القنوات البحرية العديدة هناك، وإذا زرت ميونيخ خُيل إلىَّ أننى سألتقى بشاعر الألمان الأعظم جوته بعبقريته المتوهجة وشعره الأبيض وبجواره الفتاة الجميلة التى أغرمت به فى سنواته الأخيرة وكرست حياتها له، وإذا زرت ستراتفورد فى بريطانيا خُيل إلىَّ أننى سأرى شاعر الإنجليزية الأكبر شكسبير.. فَمَنْ مِنَ الشخصيات التاريخية والفكرية التى أرغب فى أن «أصادفها» فى شوارع دمشق حين أزورها لأول مرة؟

مؤكد أنه الخليفة العادل التقى الورع جوهرة القصر الأموى وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأرضاه، فلقد تمنيت أن ألقاه لأطمئنه على أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ من بعده أبناءه، وأورثهم خير الميراث عنه. وأصل الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك قد أوصى عمر - وهو فى فراش موته - بأن يوصى لأبنائه بمال أو يوصى بمن يرعاهم بعده، فرفض ذلك مفضلاً أن يتركهم فى رعاية رب عادل خشيه عمر حق خشيته طيلة عمره، ورق قلبه لأبنائه الذين سيتركهم

بلا مال وهو الذى تنازل لبيت مال المسلمين عن ثروته الطائلة، فقال بأبى وأمى من خلفتهم بعدى فقراء!

ثم مات عمر وسقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية وبويع المنصور خليفة ودخل عليه رجل من سادة العرب يهنئه فسأله أن يعظه بشىء رآه بنفسه، فقال له: رأيت عمر بن عبد العزيز قد مات وخلَّف وراءه أحد عشر ولدًا، وترك ثمانية عشر دينارًا، ومات هشام بن عبد الملك فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع من المال دون الضياع والقصور ثمانين ألفًا من الدينارات، فوالله يا أمير المؤمنين إنى قد رأيت فى يوم واحد ولدًا من ولد عمر بن عبد العزيز يحمل مائة فرس فى سبيل الله «أى يتبرع بها للجهاد»، وولدًا من ولد هشام يسأل الناس فى الطريق!

ولو سمحت الظروف كذلك لطلبت رؤية «معاوية» لأعاتبه على أشياء كثيرة لامجال للإشارة إليها فى هذه العجالة، ولتوقفت فى إجلال أمام قبر صلاح الدين.. ولعنت فى سرى الجنرال الإنجليزى اللنبى الذى وقف أمام نفس القبر، حين دخلت الجيوش البريطانية فلسطين فى نهاية الحرب العالمية الأولى، قائلاً له بشماتة:

- ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين! مشيرًا فى ذلك إلى طرد صلاح الدين للصليبيين من بيت المقدس واندحارهم أمامه!

ولوقفت خاشعًا أمام قبر النبى يحيى عليه السلام فى المسجد الأموى، وأمام قبر القطب الصوفى الجليل محيى الدين ابن عربى، وأمام قبر زينب الصغرى بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما.

لكن كيف يتسع يومان فقط فى دمشق لكل هذه الرغبات والأمنيات العديدة! فلتكن هذه الزيارة الخاطفة إذن هى بطاقة التعارف الأولية بينى وبينها، ولنأمل معًا فى أن يتسع العمر لتكرار اللقاء.. وتعميق المودة.

وفى شوارع المدينة تجولت، ومن شارع إلى شارع مضيت، وفى المسجد الأموى تنسمت نسائم روحية جميلة معطرة بعطر المكان وأصداء التاريخ، وأمام قبر النبى يحيى خفق القلب بالرجاء والدعاء، وفى المقهى الشعبى القريب منه شعرت بأننى لم أغادر حى خان الخليلى بالقاهرة، وفى سوق الحميدية الشهير خُيل إلىّ أننى فى شارع الموسكى.

وفى أول مكتبة دخلتها تقافزت أمامى عناوين الكتب العديدة التى أود شراءها وقراءتها.. لكن كيف يتسع العمر لكل ما يريد المرء أن يعرفه؟

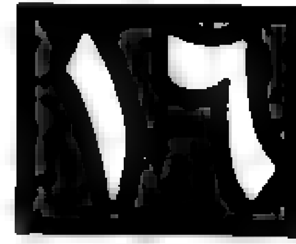
لا مفر إذن من مقاومة الإغراء.. والاكتفاء ببضعة كتب وروايات منها المسرحية الجميلة التى عرضت فى القاهرة قبل سنوات ولم أرها وهى «طقوس الإشارات والتحولات» لسعد الله ونوس، ومنها أيضًا رواية غسان كنفانى التى قرأتها منذ سنوات بعيدة وفقدتها فأعادتها إلىَّ دمشق فى الزيارة الأخيرة.. «رجال فى الشمس».

وفى كل مكان دخلته فى هذه المدينة شعرت بالألفة.. ودفء المشاعر ووحدة الشواغل والهموم، فالبشر طيبون ومرحبون، وعاطفتى العربية تغلب علىَّ فلا أرى فيهم ولا فى المكان إلا كل شىء جميل.. ولقد خبرت هذه المسألة من قبل خلال أسفارى العديدة إلى بلدان العالم، وقلت دائمًا لمن يشكو إلىَّ سوء المعاملة أو جفاء البعض فى بلد يزوره لأول مرة.. إن المكان يحب من يحبه.. والبشر كذلك يحبون من يحبهم ويحترمهم، فإذا زرت بلدًا لأول مرة فابدأه وأبدأ أهله بالحب تجد غالبًا كل من تلتقى به فيه ودودًا معك وملبيًا، وابدأه بالكره أو النفور أو الاستعلاء الباطنى عليه أو الإحساس بالنقص تجاهه وتجاه أهله.. ولن تلتقى فيه غالبًا إلا بكل من يؤكد لك إحساسك المسبق به، ومع أنها ليست فكرة علمية مائة بالمائة إلا أنها لا تخلو فى نفس الوقت من حقيقة وجدانية ونفسية، وهى أن مبادرتك بالحب للآخرين

تسهم بالفعل فى فتح مغاليقهم وتدفعك للبشاشة فى وجوههم والتعامل معهم بود، وتشجعهم على التجاوب معك.. فضلاً عن النظرية القديمة: «عين الرضا عن كل عيب كليلة.. ولكن عين السخط تبدى المساويا»!

ولقد طبقت فكرتى هذه مع معظم دول العالم فأكدت لى التجربة أنها ليست فكرة خيالية تمامًا، ونفذتها مع دمشق مؤخرًا فبدأتها وبدأت أهلها بالحب والتطلع لمودتهم فغمرتنى وغمرونى بها!





صور من حياتهم: الباب المفتوح!

نهض من نومه مثقلاً بنفس الإحساس المبهم بالحزن الشفيف، تمطى فى فراشه وتلفت حوله يستكشف أبعاد المكان، كأنما يراه لأول مرة، كل شىء فى مكانه المعتاد .. الفراش.. والملابس المعلقة على المشجب القريب وجهاز التليفزيون المغلق..

و لكتاب الساقط على الأرض منذ غشيه النوم فوقع من يده.. والمنبه المزعج.. وكوب الماء الفاتر الذى يبدأ به يومه، فلماذا يشعر دائمًا بهذا الحزن الغامض.. ولماذا يثقله الإحساس بما يشبه الذنب، كأنما قد قصَّر فى أداء واجب أو أساء إلى أحد؟

مدّ يده إلى كوب الماء وتجرعه فى بطء ونحّاه جانبًا وغادر الغرفة.. كعادته كل يوم اتجه بنظره إلى الغرفة المجاورة، ليرى هل مازال بابها مغلقًا على صاحبها النائم، أم أنه قد نهض من نومه وغادر البيت إلى عمله.. رآه مفتوحًا، فاطمأن إلى أنه قد ذهب إلى عمله فى الموعد الملائم ولم يتأخر عنه.. وقال لنفسه مكتئبًا، وهو يغيب فى الحمّام: أيام قليلة ويظل هذا الباب مفتوحًا على الدوام!

فما عساى أن أفعل بحياتى حينئذ؟

غادر الحمام منتعشًا بعض الشىء بالماء البارد وشذا الكولونيا، ففرد السجادة الصغيرة.. استغرق فى الصلاة، ودمعت عيناه كالعادة وجبهته تلامس السجادة، ولسانه يتهدج بالدعاء الطويل.. ثم انتهى من صلاته، فجلس ساهمًا، بعض الوقت.. ثم طوى السجادة ودخل المطبخ وأعدّ لنفسه إفطارًا خفيفًا وكوبًا من الشاى، وجلس إلى المائدة يتناول إفطاره وحيدًا والحزن الغامض يغلف أحاسيسه،

تذكر ـ وهو يحتسى الشاى ويقرأ الصحيفة الصباحية التى جاء بها البواب ـ فيلمًا مصريًا جميلاً شاهده قبل أعوام، وتوقف فيه أمام عبارة نطق بها أحد أبطاله فى لحظة ضعف إنسانى شديد، فلقد هجرته فتاته بعد أن يئست من وفائه لوعده لها بالزواج منها وتزوجت من غيره.. وتظاهر هو بالاستهانة بهجرها له، ورفض أن يظهر أى لوعة على فراقها مؤكدًا أنها سوف ترجع إليه نادمة بعد حين، إلى أن أفرط فى الشراب ذات ليلة فإذا به يفقد تماسكه المزعوم ويتجه إلى بيت زوجها، ويزأر أمامه بصوت ممرور: عِد الجروح ياقلم!.

وينادى فتاته السابقة مطالبًا إياها بالخروج إليه، لأنه لا يطيق بعادها، ويتجمع حوله الجيران ويطالبونه بالتعقل والانصراف، فيهددهم بالأذى إذا اقتربوا منه.. لكن أحدهم يتلطف به فينهار باكيًا بين يديه، ويستسلم لمن يسحبه بعيدًا عن المكان!

عِد الجروح.. ياقلم!

يالها من عبارة فريدة أفرزها قلب حسير، فهل يستطيع هو حقًا أن يحصى كل الجراح التى أصابت القلب على مر السنين.. ومن أين يبدأ التعداد إذا أراد حقًا أن يفعل ذلك؟!

من سن الطفولة المبكرة وهو يصحو من نومه ذات ليلة على يد

أسابيع من موعد زفافها.. إلى الأخ الأكبر والأخ الأوسط، وكل منهما فى منتصف العمر، حتى لم يبق له من أسرته سوى أخت كبرى تقيم مع أبنائها فى الجنوب، ولا يكاد يراها إلا كل عامين أو ثلاثة.

أم من فترة الحياة الزوجية، التى لم يهنأ بها سوى بضع سنوات قليلة أنِس القلب خلالها إلى شريكة عمر طيبة القلب رقيقة المشاعر، وأمل فى أن يحتمى بها ضد الوحدة والأحزان فإذا بها تمرض فجأة.. وتلازم الفراش بضعة أشهر، وتودع الحياة فى شرخ الشباب، تاركة وراءها ثمرة القلب الوحيدة، ولد فى الثامنة من عمره.. فيحدب هو عليه، ويكرس حياته لرعايته.. ويتلازمان ليل نهار، ويتشاركان فى كل الأوقات حتى يصبح الابن العزيز محور حياته وكيانه، ويعانى هو الكثير حين يتقدم الابن فى مدارج العمر وتصبح له حياة مستقلة، وتطول ساعات انشغاله عنه بأصدقائه، وأفكاره وشواغله المختلفة ورحلاته، بعيداً عنه بالأيام والليالى.. فيخلو عليه المسكن ويشتد إحساسه بالوحدة والخواء.

أم ترى هل يستعرض أشواك الأذى والغدر التى انغرست فى صدره وجسمه خلال رحلة الحياة العملية، بالرغم من ميله الغريزى للمهادنة والعيش فى سلام؟ أم هل يستعيد أوجاع القلب الحسير حين

تنبهت مشاعره مرة أخرى، بعد عشر سنوات من رحيل الزوجة، واتجهت صوب زميلة له فى العمل فأحبها بصدق، ورغب فى الزواج منها وضم طفلها من زوجها السابق إلى رعايته، ورفض أن يُقدم على الخطوة المهمة بغير أن يمهد لها عند الابن الغالى، فإذا به يثور على أبيه ثورة طائشة، ويرفض بإصرار دخول أيه امرأة أخرى بعد أمه حياته، ويعتصم ببيت خاله رافضًا العودة إلى أبيه، إن لم يعدل عن نيته وتفشل معه كل محاولات تذكيره بوحدة الأب وحاجته إلى الإيناس ودفء الزوجة فى حياته، فيتراجع الأب فى النهاية عن مشروعه باكيًا، ويطلب من الابن العودة إلى البيت، رافضًا نصيحة الجميع وأولهم الخال نفسه بأن يمضى إلى مايريد، ويتزوج زميلته ولسوف تهدأ ثورة الابن بعد حين ويسلم بالأمر الواقع! ويعود الابن منتصراً ويرجع هو لوحدته وأحزانه ويتقبل صامتًا لوم زملائه واتهامهم له بتدليل ابنه تدليلاً فجًا، أصبح معه يكاد يتحكم فى حياته.

فهل من العدل أن يجيئه بعد أن تخرّج فى كليته وعمل عملاً لائقًا.. وتركز فيه أمله فى أن يتزوج ذات يوم، ويملأ عليه مسكنه بالأطفال الأحباء، حتى ولو تطلب الأمر أن يتنازل له عن المسكن ويحيا هو فى غرفة وحيدة فى أى مكان، هل من العدل حقًا أن يجيئه ذات يوم ليقول له بابتهاج إنه قد حصل على تأشيرة هجرة إلى

الأرض البعيدة، وينتظر انتهاء الإجراءات، لكى يرحل بعيداً عنه بعد أسابيع؟! وحين يلومه لمباغتته له بهذه «الخيانة» المفاجئة، يجيبه بأنه قد تعمد تكتم الأمر عنه، ومضى فى الإجراءات سراً لأنه يعلم جيداً أنه لن يسعد بذلك، لكنه يرجوه أن يسعد معه بهذه الفرصة.. ويَعده بأن يستقدمه إلى مهجره، بعد أن تستقر به الأحوال، أو يرجع هو إليه كل عام إذا تعذر عليه استقدامه!

ياإلهى لكم تقسو القلوب الشابة فى بعض الأحيان.

أيهاجر إلى الأرض البعيدة.. ويتركه وحيداً وهو الذى تجرع غصص الوحدة والحرمان من الحب والعشير من أجله؟

وماذا يفعل بحياته من بعده؟ هل يتزوج حقًا كما «نصحه» بذلك الابن الغالى مظهراً العطف عليه؟.. وأين كان هذا العطف، وهو يستجديه قبل خمس سنوات فقط، أن يقبل زواجه من زميلته بالعمل؟! لقد بلغ الآن الخامسة والخمسين و «فتاة القلب» التى رغب فى الزواج بها قبل سنوات، ضاقت بتردده وعجزه أمام ابنه فانصرفت عنه وتزوجت غيره وأنجبت له، فكيف لقلبه أن يخفق لغيرها من جديد؟ ومن قال للابن العزيز إنه سوف يسعد بالهجرة إليه، إذا أتيحت له الهجرة، فيجد نفسه غريبًا وحيداً فى أرض غريبة بلا أهل ولا أصدقاء، وهو فى هذه المرحلة من العمر؟

نعم.. نعم لكم تقسو حقًا القلوب الشابة فى بعض الأحيان؟!

ولكن هل نملك ألاّ نسلم لثمرات القلوب بما يرون فيه سعادتهم وأملهم.. ولو تجرعنا نحن غصص الألم؟!

ويومًا بعد يوم.. والابن الحبيب يمضى إلى غايته، بغير أن يتوقف أمام النداء الصامت فى عين أبيه، أن يَعدل هو أيضًا عن رغبته، كما أجبره ذات يوم على العدول عن أمل قديم.

وكلما نهض من نومه فى الصباح وتطلع إلى باب غرفة الابن الغالى وجده مفتوحًا على الدوام.. والحجرة خالية دائمًا من ساكنها!

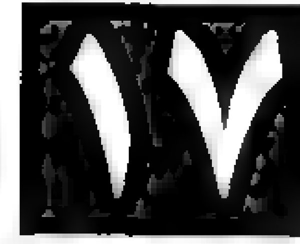
تنبه لنفسه فوجد الساعة تقترب من التاسعة صباحًا، وكوب الشاى الذى كان يحتسيه فارغًا حتى الثمالة.. وأطباق الإفطار كاملة أمامه لم تمسها يده.. فأعاد الكوب إلى موضعه.. وهَمّ بأن يمد يده إلى الخبز المحمص، لكن نفسه عافت الطعام فى اللحظة الأخيرة.. فسحبها وحمل الصينية إلى المطبخ، واتجه إلى غرفة نومه ليرتدى ملابسه، ويذهب إلى عمله بلا إفطار كعادته منذ أبلغه الابن بنيته المفاجئة، وانتهى من ارتداء ملابسه وسُحب الحزن الصامت تتكثف داخله، ووقف يمشط شعره أمام المرآة فُخيِّل إليه أنه يرى فيها الرجل المخمور بطل الفيلم الجميل، وهو يزأر مطالبًا القلم بأن يعد جراحه.

وفى لحظة ضيق تساءل: ألا أمل حقًا فى أن يعدل الابن الحبيب عن رغبته الغادرة فى البعد عنه؟ وأليس هناك أى أمل، ولو كان واهيًا، فى أن تسحب دولة المهجر تأشيرتها السابقة له بالهجرة؟

وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك هل يجد من زميلاته فى العمل من يضمن تعاطفها وعونها له، إذا رجاها ذات يوم أن ترشده إلى سيدة أرملة رحيمة، أو مطلقة عطوف تقبل الزواج من كهل حزين القلب يميل للصمت واجترار الأحزان.. ويتعلق كل أمله فى الحياة برنين التليفون الذى يحمل له صوت الابن الوحيد من وراء المحيطات؟!

لا أعرفُ. . كما لا أعرف أيضًا لماذا وجدت نفسى أعود إلى قراءة تفاصيل المشهد الأخير فى حياة أدولف هتلر زعيم ألمانيا النازية الذى حارب العالم وحاربه العالم ٦ سنوات كاملة كانت إشارة منه خلالها تكفى لاختفاء دولة ما من الخريطة أو بقائها. . ثم جاء الفصل الأخير كما لابد أن يجىء. . وبعد الانتصارات الكاسحة مالت الشمس للمغيب. . وتوالت الهزائم وتراجعت الجيوش الألمانية فى كل الجبهات. . واقتربت جيوش الحلفاء والجيوش الروسية منها بالذات من مخبأ هتلر بمبنى المستشارية فى برلين. . وبدأ جرذان السفينة الغارقة يفرون منها واحدًا وراء الآخر، وأدرك الجميع فى ألمانيا وفى كل العالم أنها النهاية المحتومة. . ماعدا شخص واحد هو الفوهرر العظيم هتلر. فلقد عزا الهزائم إلى خيانة القواد وليس إلى تَغيَّر موازين القوة وراح يعقد مؤتمره العسكرى ظهر كل يوم كما اعتاد أن يفعل طوال ٦ سنوات. . ويصرخ فى قواده. . ويذرع الملجأ المحصّن الذى يقيم فيه تحت الأرض ومعه هيئة مكتبه ملوحًا بخريطة تمزقت من عرقه وعصبيته ويضع الخطط لحملة جيش القائد الألمانى ونيك كما جاء بالنّص فى كتب التاريخ.

لكن حملة «ونيك» وهجوم جيش القائد شتاينر لم يكونا إلا من بنات أفكار الفوهرر فقد تمت تصفية جيش ونيك. . والجيش التاسع وكان جيش القائد هنريك يتجه إلى الحلفاء ليستسلم لهم وكل ذلك



في الحقيقة!

مازلت مولعا بقراءة تفاصيل الفصل الأخير فى حياة بعض الشخصيات التاريخية التى تلاعبت لفترات بالمصائر.. وأقدار الشعوب.. هل لأنى أراهم فى النهاية وقد عادوا أشخاصاً بؤساء لا حول لهم ولا قوة كباقى البشر.. أم لأن الجميع مهما بلغوا من القوة والبطش فى بعض المراحل يجىء إليهم الموت فيجرف أمامه ماكانوا يعتقدون أنه لا يزول؟.

خرج إليهم بعد الثانية والنصف صباحًا وصافحهم..! فما إن عاد مرة أخرى إلى جناحه حتى تولت بعض الحاضرين رجالاً ونساء هيستيريا مرح غير مفهوم فتوجهوا إلى الكافيتريا وانخرطوا فى رقص صاخب محموم غير مبالين برسول هتلر الذى طلب منهم بعد قليل خفض أصوات الضجيج!

وفى اليوم التالى تناول الفوهرر غداءه الأخير مع سكرتيرتيه وطاهيته.. أما عروسه فلم تكن راغبة فى تناول الطعام، وبعد الغداء عاد إلى غرفته.. ووضع مسدسه فى فمه وأطلقه.. أما عروسه فلقد تناولت السم بهدوء.. وكانت قذائف المدفعية تتوالى على دار المستشارية.. فحملوا جثمان الفوهرر ملفوفًا ببطانية عسكرية لتخفى وجهه المشوّه.. وزوجته.. ووضعوا جثتيهما فى حفرة من الحفرات العميقة التى صنعتها قذائف المدفعية الساقطة وسكبوا عليهما صفائح البنزين وأشعلوا فيهما النيران.. ووقف الحاضرون بإجلال أمام اللهب المتصاعد وبدأوا يؤدون التحية الأخيرة للفوهرر وزوجته رافعين أيديهم اليمنى إلى أكتافهم على الطريقة النازية.. فإذا بقصف المدفعبة يعود.. بشدة.. وإذا بالجميع يفرون عائدين إلى الملجأ.. وضاع جلال مشهد الوداع!

••••

أما هذه الشخصية الرهيبة فلقد قرأت عن الفصل الأخير فى حياتها بالصدفة.. فلقد مددت يدى إلى رف كتب التاريخ القديم

وهتلر مستمر فى تحريك جيوش وهمية.. متهمًا قواده وناسبًا الانتصارات السابقة إلى عبقريته وحدها.. والهزائم الحالية لخيانة القواد وجبنهم.

وفى غمرة الأحاسيس المشوشة بالنهاية قرر أن يتزوج عشيقته إيفا براون، مكافأة لها على إخلاصها له طوال السنوات السابقة.. واستدعى موظفًا من المجلس البلدى لبرلين ليعقد قرانه رسميًا عليها.. وتم القران وبعده بقليل سلّم سكرتيرتيه كبسولتين من السم وخيّرهما فى استعمالهما إذا أرادتا عند الضرورة.. واقتربت الجيوش الروسية.. وبدأت مدافعها تدك دار المستشارية وحديقتها فأمر بتسميم كلبه المفضل وكتب وصيته التى طرد فيها وزير حربه «الخائن» جورنج من الحزب ومن منصبه ورئيس الحرس النازى «هملر» من مناصبه، لأنهما كما كتب حاولا اغتصاب السيطرة على الدولة والتفاوض مع الحلفاء.

وفى اليوم الأخير عقد الفوهرر مؤتمره الحربى عند الظهر كالعادة ثم مؤتمره المسائى وبلغته أنباء وصول الروس إلى مبنى وزارة الطيران الذى يقع على مرمى حجر من دار المستشارية حيث يقيم فى الملجأ الحصين المقام تحتها فظل يحرك جيوشًا خيالية يفترض قدومها لإنقاذ العاصمة.. ويملى رسالته الأخيرة، ثم دخل أخيرًا جناحه الخاص وطلب من الجميع عدم الانصراف للنوم.. وبعد ساعات طويلة

قيد الحياة وأمر بأن يُدفن معه العمال الذين بنوا القبر الحصين حتى لا يرشدوا أحداً إليه فينهبه الناهبون!

ثم جاءه الموت الذى لا يفرق بين الأباطرة والعبيد فلم يجرؤ أحد على الاقتراب من الغرفة التى مات بها، وظلت جثته داخلها بضعة أيام حتى فاحت رائحتها النتنة واضطر الخدم إلى إخراجها وسط موكب من عربات السمك لكى تغطى رائحته على رائحة جيفة الإمبراطور!

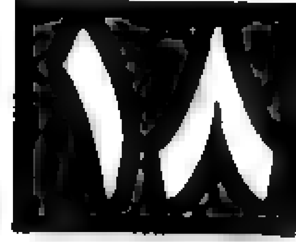
وانطوت صفحة كريهة أخرى من صفحات التاريخ وأسرعت أنا بإغلاق الكتاب قبل أن يزيدنى اكتئاباً!.

فعادت بكتاب عن تاريخ الصين.. استغرقت فى قراءته فشدتنى فيه شخصية «شيه هوانج» أقوى وأبشع أباطرتها وأكثرهم سفكًا للدماء، لقد عُرف منذ صباه بالقسوة وانعدام الضمير حتى مع أقرب الناس إليه، ثم تولى عرش إقليمه فى القرن الثالث قبل الميلاد وعمره ٢٥ سنة فتطلع إلي فرض سيطرته على باقى ولايات الصين وحارب كل الولايات بضراوة لا تعرف الرحمة وأخضعها كلها خلال ٩ سنوات ووحدها لأول مرة فى تاريخها ثم بنى سور الصين العظيم الذى يمتد ١٥٠٠ ميل حولها واستقر على عرشها وحكمها بالحديد والنار.

ولم يكن «شيه هوانج» يكره شيئًا فى الحياة كما يكره الشعراء والفلاسفة والمثقفين والمؤرخين وهو الإمبراطور الذى أمر بإحراق كل المؤلفات حتى اضطر طلاب الفلسفة الكونفوشية إلى الهرب إلى الجبال وحفظ المؤلفات غيبًا حتى لا تضيع وأعدم مئات المثقفين الذين حاولوا الاحتفاظ بكتبهم.. وازداد الامبراطور مع الأيام شراسة وغلظة فأعلن نفسه إلهًا وفرض على شعبه عبادته وفقد ثقته بالجميع فأصبح لا يجلس على عرشه إلا وسيفه بين يديه ويبيت كل ليلة فى غرفة مختلفة من غرف القصر العديدة خوفًا من الاغتيال ثم أحس باقتراب الموت، فهل يموت وحده كما يموت الناس؟

لا بالطبع لقد بنى قبرًا محصنًا كالقصر وأمر ـ وكلمة الإمبراطور الإله لا ترد ـ بأن تدفن معه يوم وفاته ثلاثة الآف فتاة جميلة على

يسألنى عمن أحب أن ألتقى بهم خلال زيارتى لبلاده، والأماكن التى أفضل زيارتها، فأجبته بأننى كعادتى فى زياراتى المماثلة للدول العربية والأجنبية، فإنى أهتم بأن أرى معالمها التاريخية المميزة ومتاحفها وبعض مظاهر ثقافتها وفنونها، كما أفضل دائمًا أن تتاح لى الفرصة لأن أرى شكل الحياة اليومية فيها من خلال تجوالى الحر فى شوارع عاصمتها وأسواقها وأنديتها ومقاهيها.. أما من أحب الالتقاء بهم فهم - بحكم طبيعتى - بعض المشتغلين بالأدب والصحافة والسياسة لأتحاور معهم.. وأعرف منهم ما أريد معرفته عن مجتمعهم. ووعدنى المستشار بتلبية مطلبى راجيًا لى إقامة طيبة فى بلاده، لكن ظروفى حالت بينى وبين تلبية الدعوة على الفور، وشغلتنى الشواغل حوالى ثلاثة شهور قبل أن أتأهب لزيارة هذه الدولة العربية.. وحين ركبت الطائرة إليها كان المستشار الإعلامى قد انتقل من عمله بالقاهرة إلى سفارة أخرى، وحل محله مستشار جديد لم أناقش معه للأسف برنامج زيارتى لبلده اعتمادًا على أنه مُعَدٌّ سلفًا منذ عدة شهور، وهكذا وصلت إلى مطار مسقط فى وقت متأخر من الليل ذات يوم منذ سنوات، فوجدت مندوبًا من الجهة الداعية فى انتظارى، لفت نظرى أنه شاب صغير السن قد لا يتجاوز عمره عشرين عامًا، ورحب بى الشاب وساعدنى بشهامة فى حمل حقيبتى، ثم اصطحبنى فى السيارة إلى الفندق.



لاحظ.. ثم لاحظ.. ثم لاحظ!

خدعنى اسم مجلة الشباب.. أو خدع على الأصح من دعونى إلى زيارة تلك الدولة العربية الشقيقة... فقد دعيت منذ سنوات لزيارة سلطنة عمان، واتصل بى المستشار الإعلامى بسفارتها فى القاهرة..

قبل مجيء المرافق فاستغرقت فى قراءة هذه الكتيبات، واستخلاص الأرقام والمعلومات منها وتدوينها فى المفكرة الصغيرة التى خصصتها للرحلة.

فمن عادتى أيضًا أن أحمل معى مفكرة صغيرة جديدة فى كل رحلة أقوم بها إلى دولة من دول العالم، وأن أدون فيها ما أجمعه من معلومات عنها.. ومايستلفت نظرى من ملاحظات أو مشاهدات خلال إقامتى بها.. بالإضافة إلى ملخص شديد التركيز لمعظم حواراتى مع من ألتقى بهم من مسئوليها ومفكريها وفنانيها، فإذا رجعت إلى بلدى كتبت على هذه المفكرة اسم البلد الذى زرته وتاريخ الزيارة وضممتها إلى «زميلاتها» من المفكرات المماثلة، وقد أرجع إليها عقب عودتى من الرحلة على الفور إذا أردت الكتابة عن البلد الذى زرته، وقد تمضى سنوات قبل أن أرجع إليها مرة أخرى إذا دعانى داع لاسترجاع ذكريات الرحلة والكتابة عنها..

وبفضل هذه العادة تجمعت لدى الآن عشرات من المفكرات الصغيرة الثمينة.. تحمل أغلفتها عناوين من نوع «اليونان ٧٠» و«إيطاليا ٧٠» و «ألمانيا ٧٤» و «إنجلترا ٧٧ و ٨٥ و ٨٧ و ٨٨ و ٩٠ و ٩٢ و ٩٧» إذا تكررت الزيارات لنفس البلد..

وهكذا، حتى بلغ عدد المفكرات الصغيرة التى تسجل زياراتى لدولة كفرنسا مثلاً ١٥ مفكرة! ولقد ظننت ذات يوم أنها عادة

الطريق إلى الفندق خال فى هذا الوقت المتأخر من الليل، والشاب المرافق يقود السيارة بسرعة جنونية كأنما يسابق بها الريح، ويبتسم كلما رجوته أن يخفف من سرعته، ويستجيب لرغبتى للحظات، ثم لا يلبث أن تغلبه طبيعة الشباب.

وصلنا فى النهاية إلى الفندق بسلام، وقدّم لى الشاب برنامج الزيارة فى مظروف مفتوح، وتركنى لأستريح على أن يرجع إلىّ فى الصباح، وكعادة رجل المراسم فى مثل هذه الزيارات أبلغنى الشاب أننى أستطيع بعد قراءة البرنامج إلغاء أية لقاءات مقترحة لاأراها مفيدة لى، وكعادتى مع نفسى أدركت أننى سوف أتحرج من الاعتذار عن أى لقاء تم ترتيبه لى من الجهة الداعية، تجنبًا لإحراجها مع من حددت معهم مواعيد هذه اللقاءات من قبل.

ثم صعدت إلى غرفتى، واستسلمت لنوم جائع إلى الراحة.. وقد يرحب المرء بمثل هذه الأسفار لتخرج به من مطحنة العمل اليومية، ويجد فيها أول مايجد فرصة لأن ينال خلالها ما لا يتاح له غالبًا فى حياته الطبيعية من القدر الكافى من النوم والراحة! نهضت فى الصباح منتعشًا بساعات النوم الهادئ التى أتيحت لى فى ليلتى الأولى بمسقط، وشربت قهوتى، وأخرجت ما أحمله معى دائمًا من كتب أو نشرات عن الدولة التى أزورها، لأقرأ عنها قبل أن أتعرف عليها على الطبيعة.. ووجدت أمامى ساعتين خاليتين من الارتباطات

متر المربع، فلا عجب أن يشعر بعض أهلها بالذهول إذا زاروا حى شبرا بالقاهرة الذى قد تزيد الكثافة السكانية فيه عن ١٠٠٠ شخص فى الكيلو متر المربع، أو إذا زاروا بعض مدن الهند المزدحمة بالبشر.

أما عاصمتها فسكانها حسب تقديرات عام ١٩٩٣، حوالى ٦٢٢ ألف نسمة، وأما جامعتها فحديثة النشأة وتأسست عام ١٩٨٦، وأما الأسرة الملكية الحاكمة فلقد أسسها أحمد بن سعيد عام ١٧٤١، وتعد أسرته الملكية بذلك من أقدم الأسر الحاكمة فى المنطقة العربية الآن.

انتهيت من قراءتى السريعة لهذه الكتيبات ووجدت مظروف برنامج الزيارة ففتحته لأول مرة وقرأته، فإذا به كله لقاءات ومقابلات مع رؤساء الاتحادات الرياضية فى الدولة العربية الشقيقة ابتداءً من رئيس اتحاد الهوكى.. إلى رئيس اتحاد الكرة الطائرة.. إلى سكرتير اللجنة الأوليمبية الرياضية!

يا إلهى.. ماذا أقول خلال هذه اللقاءات؟ وماذا سوف أسمع فيها؟

لقد خدع اسم مجلة «الشباب» من أعدوا لى هذا البرنامج بسبب الربط الشائع بين الرياضة والشباب، فتصوروا أنه من الأنسب، لاهتماماتى أن ألتقى بمسئولى الرياضة فى بلدهم،

متخلّفة فى عصر يعتمد فيه الكثيرون على أجهزة التسجيل الصغيرة التى يهمسون إليها بملاحظاتهم ثم يحتفظون بشرائطها بدلاً من هذه العادة «البدائية»، إلى أن كنت فى زيارة للكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل منذ سنوات وتحاورت معه عن بعض وقائع تاريخ مصر المعاصر خلال مرحلة الوحدة مع سوريا، فإذا به يستدعى سكرتيره، ويطلب منه ملف زيارته لسوريا عام ١٩٥٩، فيغيب السكرتير للحظات ويرجع إليه بملف صغير، فتحه الأستاذ هيكل فإذا به يضم مفكرة صغيرة وبضع أوراق إصْفَرّ لونها من القدمِ سجّل عليها بخطه الدقيق ملاحظاته وملخصًا لما شهده بنفسه من حوارات وأحاديث سياسية بين عبد الناصر والساسة السوريين خلال تلك الزيارة! وعرفت منه أنه مازال يحافظ على هذا التقليد حتى الآن، وأنه يدوِّن دائمًا بخط يده ملخصًا مركزًا لكل حديث يتبادله مع أية شخصية هامة سياسية أو فكرية، ليرجع إليه ذات يوم ولو بعد ثلاثين عامًا!

استغرقت فى قراءتى لما حملته معى من كتب صغيرة عن سلطنة عمان أو «مسقط وعمان» كما كانت تعرف فى التاريخ من قبل، وعرفت أن مساحتها تمتد فوق ٢١٢ ألف كيلو متر مربع، وأن عدد سكانها فى أحدث التقديرات حوالى ١,٨ مليون نسمة، وأن نسبة الكثافة السكانية فيها قليلة ولا تكاد تتجاوز ٩ أشخاص فى الكيلو

إبداء «الاهتمام والشغف» بما لا يهمنى فى الحقيقة فى شىء كثير خلال المقابلات الأخرى.

وانتهى برنامج الزيارة بسلام... ووجدتنى فى نهايته قد كوّنت «فكرة» لا بأس بها عن أحوال الرياضة فى القطر الشقيق، وتسلقت عدة ربوات عالية، وتفقدت عدة حصون أثرية قديمة يرجع تاريخ بعضها إلى ماقبل الإسلام ويرجع تاريخ البعض الآخر للقرن الثامن عشر، كما وجدتنى - وهو الأهم - قد ملأت معظم صفحات المفكرة الصغيرة بما سمعت وما شاهدت خلال لقاءاتى وجولاتى الحرة فى أسواق المدينة ومقاهيها عقب انتهاء برنامج المقابلات..

ولقد كانت هذه الجولات هى أهم فقرات برنامجى غير الرسمى لزيارة سلطنة عمان.. وعلّمتنى التجربة أننى قد أعرف من خلال الجولات، عن شعب البلاد التى أزورها ومجتمعها ماهو أهم بكثير مما قد أعرف، عنهما خلال الأحاديث والمقابلات الرسمية.

وكثيراً ما تذكرت - خلال جولاتى هذه فى أى بلد أزوره - نصيحة الروائى الفرنسى جوستاف فلوبير لتلميذه جى دى موباسان حين سأله التلميذ من أين يستمد مادة قصصه فأجابه: لاحظ الحياة من حولك.. ثم لاحظ.. ثم لاحظ!

ولقد عملت بالنصيحة أنا أيضًا، فلاحظت.. ولاحظت.. ولاحظت.. خلال زيارتى لعمان.. ولكل دولة زرتها.. وفى

وليس برجال الأدب والفكر والسياسة، فماذا عساى أن أفعل فى هذا المأزق؟

أدركت على الفور أننى سوف أتحرج من لفت نظر الجهة الداعية إلى عدم ملاءمة هذا البرنامج لاهتماماتى، وانتظرت مجىء المرافق فى موعده، وخرجت معه ـ ممتثلاً لأقدارى ـ إلى أول هذه اللقاءات!

ولأربعة أيام متتالية بعد ذلك رحت أتنقل بين مكاتب رؤساء الاتحادات الرياضية فى سلطنة عمان، وأستمع إلى وجهات نظرهم فى أحوال اللعبات التى يديرونها، وأستسلم فى بعض الأحيان لشرودى خلال ذلك، وأجاهد لكيلا تبدو علىّ ملامح عدم التخصص أو عدم الاهتمام! مستعينًا على ذلك، باسترجاع كلمة غريبة قرأتها لكاتب أمريكى اسمه دوك دى مورنى تقول: الرجل المهذب هو الذى ينصت باهتمام وشغف لأشياء لاتثير فى الواقع اهتمامه أو شغفه حرصًا على عدم جرح مشاعر محدثه!

. وبين كل لقاء وآخر يترفق بى المرافق فيصطحبنى لزيارة حصن أثرى قديم فى مسقط، ويحذرنى قبل الاقتراب منه مما سأعانيه من مشقة تسلق الربوة التى يقع فوقها، فأتهلل للزيارة مبديًا حماسى لتجشم عناء تسلق الربوات العالية لأنه أخف وطأة علىَّ من عناء

عربية: فأنت لا ترى فيها إلا هنودًا من العاملين فى هذه الدولة خرجوا يوم راحتهم الأسبوعية لشراء احتياجاتهم، فسدوا مداخل وسط المدينة ومحلاتها وأسواقها، حتى لينصحك الخبير إذا أردت شراء شيء من أسواق مسقط، ألا تخرج لشرائه يوم الجمعة.

كما لاحظت أيضًا انتشار العمران فى المدينة وبساطة معظم من تعاملت معهم من أهلها.

وكما أنه ليس هناك كتابًا تقرؤه ولا تستفيد منه شيئًا ولو كان هينًا - كما قال العقاد ذات يوم - فليس هناك أيضًا بلدًا تزوره لأول مرة ولا تعرف عنه الكثير والكثير حتى ولو كنت قد تقيدت خلال زيارتك له ببرنامج من اللقاءات والمقابلات التى لا تلائم اهتماماتك!

حياتى اليومية فى بلدى كلما شاهدت شارعًا جديدًا لم أمش فيه من قبل.. أو بيتًا لم أره.. أو حديقة لم أزرها.. أو مَعْلمًا أثريًا لم أتعرف عليه من قبل.. ناهيك عن تأملاتى الصامتة شبه الدائمة للبشر من حولى.

ولقد «لاحظت» خلال جولاتى فى أسواق مدينة مسقط ظاهرة أعجبت بها فى البداية، وتعجبت لها فى النهاية.. فلقد رأيت شابًا لا يزيد عمره عن التاسعة عشرة ومعه «أخته» التى لايزيد عمرها أيضًا عن ١٧ عامًا يتسوقان فى المحلات التجارية ويتشاوران فيما يشتريان، وأعجبت بأن يصطحب الأخ أخته إلى شراء احتياجات البيت وأن يتبادل معها الرأى بهذه الروح الأسرية الجميلة، وأبديت ملاحظتى هذه لمرافقى الشاب فاستغرق فى الضحك وصحح لى «الملاحظة» قائلاً لى: إن هذين الشابين الصغيرين ليسا أخًا وأختًا وإنما زوجًا وزوجة لأن ظاهرة الزواج المبكر مازالت منتشرة فى عمان!

ولاحظت كذلك هدوء الحياة فى هذا البلد العربى بصفة عامة.. ونظافة شوارعه واحترام أهله لقواعد المرور..

أما أغرب ملاحظاتى فقد تركزت على تحول أسواق وسط المدينة يوم الجمعة من كل أسبوع إلى سوق هندية خالصة يُخيل إليك حين تراها أنها فى مدينة من مدن شبه القارة الهندية وليست فى دولة

ولقد علمتني تجاربي أنني حين أكون مطالبًا بإنجاز عمل لابد من إنجازه في الصباح الباكر فإني أدخل فراشي قبل موعدي المعتاد بساعة أو ساعتين على أمل أن أنجح في اقتناص ثلاث أو أربع ساعات من النوم المضطرب قبل النهوض لأداء الواجب الثقيل، فأفعل ذلك وأحاول تهدئة أعصابي ومراودة النوم إلى أن «يرق» ويجيء، وأغمض عيني في ظلام دامس إلى أن يقترب الموعد المحدد ويرن جرس المنبه أو لا يرن فأنهض من فراشي متحيرًا ومتسائلاً: هل نمت حقًا.. أو ترى أنني لم أنم لحظة واحدة؟

وأما ما يرجح لي أنني قد نمت فهو أنني قد استلقيت في فراشي بضع ساعات بلا حركة ولا قراءة في أحد الكتب الموجودة إلى جواري، وأما ما يريبني في حقيقة نومي فهو أنني قد «شعرت» بكل لحظة مرت عليّ وأنا راقد في فراشي مغمض العينين، «وفكرت» أيضًا طوال ذلك فيما سأكتبه في الصباح الباكر، وقلبت أكثر من فكرة في رأسي للمقال المنتظر، وربما أكون قد رسوت في النهاية على اختيار إحداها موضوعًا للمقال، فكيف أكون قد نمت إذن والنوم غياب كامل عن دنيا الأحياء والأفكار والشواغل؟!

إنها مسألة محيرة لم أنجح في حسمها حتى الآن، فوقفت منها موقفي من بعض ألغاز الحياة الأخرى التي لا أجد لها حلاً ولا تفسيرًا، تمامًا كما وقفت منذ زمن طويل عاجزًا أمام هذه الأمنية

١٩

الضباب الأبيض!

كان صباحًا عاديًا كغيره من « الأصبحة » التى أنهض فيها من نومى أحيانًا فى موعد مبكر لكتابة واجب صحفى لابد لى من كتابته قبل ذهابى إلى العمل.

إلى ذلك خادم غير مخلص ولا أمين هو ذلك الشعور المنغص للراحة بأن هناك واجبًا ثقيلاً لابد لى من أدائه، وكان واجبى ذلك الصباح هو استكمال كتابة بريد الجمعة لكى أرسل به للمطبعة لينشر صباح اليوم التالى، وكنت قد أمضيت فى اليوم السابق نهارًا طويلاً مرهقًا بدأته أيضًا فى الخامسة صباحًا، وكتبت فيه نصف الباب حتى الحادية عشرة صباحًا، ثم ارتديت ملابسى وتوجهت إلى عملى، فقضيت فيه سبع ساعات مشحونة بالعمل والتوتر، والانفعال والتفكير، وغادرت العمل فى السادسة مساء، وتوجهت إلى جامعة القاهرة لأشهد حفل كلية الإعلام لتكريم الرواد من خريجى دفعاتها الأولى، وكنت من بينهم، وصعدت إلى المنصة لأتسلم شهادة التقدير وأنا أغالب الإعياء والإجهاد، ورجعت إلى البيت فى المساء فغالبت إجهادى حتى منتصف الليل ثم أغمضت جفونى مؤملاً أن أنام خمس ساعات قبل النهوض مرة أخرى لأداء الأعمال التى تنتظرنى.

وصحوت من نومى متحيرًا كعادتى.. هل نمت أم لم أنم؟! وأنا أشعر بغثيان غريب لا أدرى له سببًا، وأفرغت معدتى ـ الخالية ـ فى الحمام، ثم اغتسلت وتوجهت إلى المطبخ، فصنعت كوبًا من الشاى، وعزفت ـ ربما بسبب الغثيان ـ عن تناول إفطارى، ورجعت إلى مكتبى فانهمكت فى كتابة بريد الجمعة، واستشارة المراجع والكتب،

الغالية، فى أن يجىء يوم أفعل فيه كما يفعل السعداء الحقيقيون فى الحياة.. فلا أدخل فراشى إلا حين يدعونى داعى النوم اللذيذ إلى ذلك، ولا أنهض منه إلا حين تدعونى ساعة جسمى البيولوجية إلى النهوض بعد الارتواء الكامل من الراحة، وبغير حاجة إلى إزعاج جرس المنبه، أو «رنين» هاجس الواجب الذى يدعو المرء لمغادرة فراشه قبل أن يشبع حاجته إلى النوم.

وكثيرًا ما تساءلت عما يستحق أن أنهض من فراشى من أجله وأنا فى هذه المرحلة من عمرى قبل أن أنال حظى كاملاً من الراحة والنوم، فلا أجد لذلك إجابة مقنعة سوى توهم الإنسان فى بعض الأحيان أنه يقوم «بجلائل المهام والأمور» التى لا تحتمل الانتظار إلى أن يرتوى من الراحة! وتذكرت مرارًا ذلك المفكر الفرنسى الحالم «سان سيمون» (١٧٦٠ - ١٨٢٥) الذى لم يكن له من عمل سوى التفكير والتأمل والبحث عن حلول نظرية لمشاكل المجتمع واستغلال الطبقات الفقيرة فيه، وهى كما ترى «مهام» تتسع لها ساعات النهار بلا إرهاق أو حاجة لاختصار ساعات النوم، ومع ذلك فقد دَرَّب خادمه على أن يوقظه من نومه فى موعد مبكر كل صباح قائلاً له:

- انهض يا سيدى الكونت، فإن أمامك أعمالاً جسامًا لتؤديها!

وفى ذلك الصباح الذى أحدثك عنه نهضت من نومى فى الخامسة بغير أن يدعونى خادم أمين للنهوض كـ «سان سيمون»، وإنما دعانى

وكررت السؤال عما بى، وكررت الإجابة غير المقنعة، ثم شعرت فجأة وكأن سحابة كثيفة من الضباب الأبيض تتصاعد فى داخلى من أسفل إلى أعلى، وتحول بينى وبين رؤيتها كما تحجب «الشبورة» الصباحية الرؤية أمام قائدى السّيارات! وتحول وجه زوجتى إلى تهويمات غامضة، أنظر إليها ولا أتبين معالمها، ثم غبت عن الوعى للحظات لا أدرى حسابها، ورجعت منه على صوت صرخة فزع، فإذا بخاطر أساسى يلح علىّ بشدة فى هذه اللحظات العصيبة، هو أن أستجمع قواى لأقول لمن معى: «بريد الجمعة»! طالبًا من أسرتى أن تسلمه للسائق ليذهب به للأهرام على عجل لكى يلحق بموعد الطبع!

ثم رجعت سحابة الضباب الأبيض الكثيف لتحجب الآخرين عنى مرة أخرى.

وتمالكت نفسى بعد قليل فنهضت بمعاونة من معى لخلع ملابسى والاستلقاء فى فراشى، وقد يئست هذه المرة من انقشاع الأزمة والذهاب إلى العمل، واستسلمت لما يشبه النوم، وفتحت عينى بعد وقت، لا أدرى هل طال أم قصر، لأجد غرفة نومى مزدحمة بالرجال من أطباء الأهرام، وإلى جوار الفراش جهاز لرسم القلب، وجهاز لقياس الضغط، وسمعت صوت طبيب الأهرام الصديق الدكتور حسين يتصل بإحد المستشفيات ويرتب معه نقلى إليه،

وشربت فنجانين من القهوة وكوبًا آخر من الشاى، ودخنت عشر سجائر كعادتى الضارة للأسف حين أنهمك فى الكتابة، ثم أفقت على جرس الباب ومجىء السائق فى الحادية عشرة ظهرًا يدعونى للذهاب للعمل، فنهضت وحلقت ذقنى وبدأت فى ارتداء ملابسى، فإذا بى أشعر بخَوَر غريب فى قوتى حتى إنى لأعجز عن رفع ذراعى لعقد ربطة العنق أو معالجة أزرار القميص، وعجزت بالفعل عن استكمال ارتداء ملابسى، فجلست إلى الفراش وانتظرت أن تنتهى هذه النوبة العارضة من الإجهاد لأخرج إلى عملى، فإذا بها تستمر وتطول لأكثر مما توقعت.. فانشغل فكرى بشىء واحد محدد هو كيف أتخفى عن أسرتى بما أعانى منه فلا تشعر به، كعادتى التى لا حيلة لى فيها فى مثل هذه المواقف..

وهدانى تفكيرى إلى أن أتحامل على نفسى وأغادر غرفة النوم لأجلس على مقعد مريح فى بهو الشقة متظاهرًا بمشاهدة التليفزيون، ومنتظرًا فى واقع الحال أن تنقشع هذه السحابة الثقيلة من الضعف والوهن لكى أستطيع استكمال ارتداء ملابسى ومغادرة البيت.. ولاحظت زوجتى جلوسى أمام التليفزيون على غير عادة فى مثل هذا الوقت، فسألتنى عما بى وطمأنتها إلى أننى بخير لكنى أستريح قليلاً قبل الذهاب للعمل، لكن هيهات أن يخفى الإنسان سرًا يفضحه شحوب وجهه المخيف وعجزه عن الحركة.

بى أضبط نفسى بعد أسبوعين فقط أنفعل بتوترات العمل ومعايشة تجربة العمل الصحفى فى جريدة يومية كما كان الحال من قبل.

وإذا بخادمى ـ غير الأمين! ـ يرجع إلى إيقاظى من نومى قبل أن يرتوى جسمى منه مرةً أخرى زاعمًا لى أن أمامى «أعمالا جسامًا لأؤدِّيها».

وإذا بالعجلة ترجع للدوران كما كانت، بنفس معدلاتها القديمة، وكأن شيئًا لم يكن!

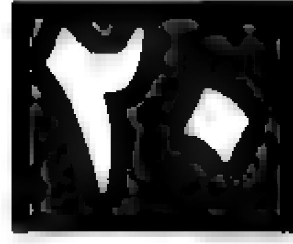
فإذا كان ثمة شىء قد استفدته من هذه التجربة فهو أننى حاولت بإخلاص الامتناع عن التدخين أو التقليل منه، والالتزام بوعدى لنفسى بأن أقضى فى نهاية كل شهر إجازة قصيرة فى مكان مفتوح للشمس والهواء خارج القاهرة!! والحمد لله من قبل ومن بعد!

وسألته راجيًا: الا يمكن أن أتلقى علاجى فى البيت؟ وسمعت إجابته الحاسمة: لا!

وفى المستشفى جاءت أولى نتائج الفحوص مطمئنة والحمد لله إلى أنها لم تكن ذبحة صدرية كما تشكك الأطباء فى البداية، وإنما كانت هبوطًا شديدًا بسبب الإجهاد وقلة النوم والمجهود الانفعالى، لكن طبيب القلب الكبير الدكتور طه عبد العزيز تمسك بإدخالى غرفة العناية المركزة لمدة يوم وليلة، وسمح بنقلى بعدها إلى إحدى غرف المستشفى لأبقى تحت الملاحظة يومين آخرين.

وتلقيت وأنا فى المستشفى النصيحة الغالية بالاحتراس من غول الإجهاد البدنى والانفعالى، وبالاعتدال فى بذل المجهود، وتنظيم الوقت، وإطالة ساعات الراحة وتقليل فترات استنشاق هواء المكاتب الراكد، والوجود لفترات أكبر فى الهواء الطلق بعيدًا عن توتر العمل وانفعالاته، والامتناع عن التدخين.. وتكررت النصائح المخلصة على ألسنة الأحباء والأصدقاء والزملاء الذين غمرونى بعطفهم خلال فترة المستشفى وبعدها، واعتزمت مخلصًا اتباع نصائحهم الغالية، وتوجهت لقضاء بضعة أيام على ضفاف البحيرات المُرَّة فى فايد عقب مغادرتى المستشفى، ورجعت إلى العمل معتزمًا التخفف من بعض أعبائى فيه والتزمت بذلك بالفعل لبضعة أيام، ثم إذا بالفترات التى أقضيها فى العمل تتزايد تدريجيًا لتقترب من معدلاتها السابقة، وإذا

وأصل الحكاية أنه حين كنت صبيًا صغيرًا ظهرت «أعجوبة» جديدة تسامعنا بها وتشوقنا إلى رؤيتها.. هى السينما المجسمة! وقيل وقتها إنها طريقة جديدة لتصوير الأفلام بأجهزة خاصة وبزوايا معينة تهيئ للمشاهد حين يراها مستعينًا بنظارة خاصة أن يرى البعد الثالث للأشياء.. وهو البروز عن الشاشة، وانتظرت بشوق عرض أول فيلم من هذا النوع فى مدينتى الصغيرة بالوجه البحرى، فطال الانتظار ولم تتحقق الأمنية.. ثم قرأت ذات يوم خبرًا سعيدًا فى إعلانات «أين تذهب هذا المساء» يقول إن دار سينما الأهلى فى دمنهور تعرض أول فيلم من هذا النوع، فتلهفت على رؤيته وسافرت إلى هناك، وغادرت محطة القطار إلى دار السينما مباشرة.. وقطعت تذكرة لدخول دار العرض.. ولاحظت أن موظف الشباك قد أعطانى مع التذكرة نظارة ورقية، عدساتها من السلوفان الأحمر القاتم.. ونصحنى بارتدائها خلال العرض، لكى أرى مشاهد الفيلم مجسمة، ودخلت إلى الدار وصدرى يجيش بالإثارة والانفعال، ووجدت كل المشاهدين فى القاعة يضعون هذه النظارات الورقية فوق أعينهم ويتعجلون اللحظة التى تبدأ فيها أحداث الفيلم «المجسم»، وبعد انتظار ثقيل أظلمت القاعة وبدأ العرض.. وتوالت أحداث الفيلم.. ولاحظت من وراء النظارة بالفعل أن شخوص الفيلم يبدون وكأنهم بارزون عن الشاشة وليسوا مجرد صور مرئية ومتحركة.. وانخلع قلبى حين انطلق القطار بأقصى سرعته فخُيل إلى أنه قد انفلت من إطار الشاشة وسيدهم الحاضرين فى القاعة.. وحدث نفس الشىء



أنت كما تفكر!

أجاهد صادقًا لكى أتخلص من هذه
«النظارة» فأنجح فى بعض الأحيان
وأفشل فى أحيان أخرى!

فإذا تعاملت مع إنسان عرفت عنه من قبل ميله للشر وإيذاء الآخرين، وتجرؤه على حرماتهم واغتيابه الدائم لهم.. لم أره بمظهره الخارجى شخصًا باسمًا أو وسيمًا أو أنيقًا، وإنما رأيته على الفور بهذه النظارة الخيالية شرًا مجسمًا قبيحًا ومنفرًا.. وقد أفزع منه فزعى من القطار الذى خُيل إلىّ أنه سيدهم المتفرجين.

وإذا اقتربت من شخص أعرف عنه التزامه الأخلاقى وطبعه الدمث وخشيته لربه رأيته بنفس هذه النظارة إنسانًا ملائكيًا بديع القسمات والملامح ولو كان يبدو فى أعين الآخرين دميمًا قبيح الوجه والخلقة. ولا عجب فى ذلك.. لأن النفوس الخربة لابد أن تنطبع على وجوه أصحابها بشكل أو بآخر، والنفوس الطيبة لابد كذلك أن تنعكس على صفحة الوجه بالسماح والاطمئنان.

خذ مثلاً ذلك الشخص الكريه الذى يمضى فى الحياة شاهرًا سيف الأذى يبادر به الغير فى كل مناسبة ولا يعفى أحدًا من سهام حقده وكراهيته للآخرين حتى يخيل إليك أن قلبه لا يعرف الحب ولو لأبويه وأبنائه وزوجته، ولا يذكر إنسانًا بخير.. ولايدع لأحد حرمةً دون أن يهتكها بلسانه.. ولايجد فرصةً لإيذاء الغير دون أن يستغلها حتى لتحسب أنه لو حضرته الوفاة ذات يوم وزاره مسئول يملك النفع والضرر للغير وهو فى فراش مرضه الأخير.. لهمس له وهو يغالب سكرات الموت بما يوغر صدر هذا المسئول على أحد من البشر أو

حين ركب بطل الفيلم سيارته وقادها بسرعة جنونية لينقذ فتاته من الموت، وصادف فى الطريق منحنى خطرًا فانحرف بسيارته المنطلقة بأقصى سرعة لينجو من السقوط فى الهاوية.. فإذا بالسيارة تقفز بالفعل ـ أو هكذا خُيل إلى ـ لتدهم الجالسين فى أول بنوار على يسار الشاشة! ولم يفارقنى الفزع عليهم إلا حين نزعت النظارة من فوق عينى.. فرأيت السيارة مازالت داخل إطار الشاشة والجالسين فى أول بنوار بخير والحمد لله.. فأعدت وضع النظارة وواصلت مشاهدة الفيلم مسحوراً ومندهشًا!

واستسلمت لهذا السحر العجيب طوال فترة العرض.. وانتهى الفيلم على خير وأضيئت أنوار القاعة.. وخرج المشاهدون يتحدثون ويتعجبون ويتبادلون الرأى حول هذه الأعجوبة الجديدة.

لكنها لم تتكرر بعد ذلك كثيرًا.. إذ يبدو أن الاختراع لم يحقق نجاحًا كبيرًا يُغرى أصحابه بتعميمه فى أفلام كثيرة.. أو ربما حلّت محله أنظمة الصوت الحديثة التى تخيل للمشاهد بالفعل أن ما يراه على الشاشة أقرب للحقيقة منه للخيال! وبالرغم من ذلك فلقد بقيت من ذكريات الصبا ذكرى هذا الرعب المجسم الذى شعرت به خلال مشاهدتى للفيلم.. وذكرى هذه النظارة الورقية القديمة.

وفى مواقف كثيرة من مواقف الحياة وجدت هذه النظارة ذات العدسات القرمزية القاتمة تقفز من غياهب الذكرى «لتجسم» لى بعض الأشخاص وتتيح لى رؤيتهم بطريقة مختلفة!

ولا غرابة فى ذلك لأن كل إنسان كما يفكر.. وكما يفعل ويتصرف فى حياته، فالتفكير فى الخير يجعلك خيِّرًا، ويضفى عليك سلامًا نفسيًا ومعنويًا يرشحك لأن تكون من البشر الطيبين الذين عناهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» ويجمِّل صورتك البشرية فى عيون الآخرين أو نظاراتهم، والتفكير فى الشر يجعلك شريرًا ويحكم عليك بالاضطراب النفسى والمعنوى ويفقدك الإحساس بالسعادة الحقيقية والأمان، ويجعل وجودك فى الحياة «محنة» لمن هم حولك يشقون بها ويدعون ربهم مخلصين أن يرفعها عنهم.

وأن تكون إنسانًا خيِّرًا مسالمًا يأمن الناس أذاه، ويأمن هو شر نفسه أمر ليس صعبًا.. بل لعله أسهل الطرق والاختيارات لمن كان ذا بصر وبصيرة، فالحياة واسعة وعريضة وتتسع للجميع، ويمكن لكل إنسان أن يحقق فيها لنفسه ما يأمله دون أن يطأ فى طريقه إليه جماجم الآخرين.

ولا يتطلب ذلك منك إلا شيئًا واحدًا عبر عنه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بكلمة مفردة هى «الإحسان»، ولقد سئل عنه فقال ما معناه:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ولقد روى عن بعض العارفين أن خاله قد دربه وهو طفل عمره ثلاث سنوات على أن يقول لنفسه فى فراشه كل ليلة دون كلام: الله

يحرّضه علّيه.. آملاً فى أن يختم حياته «خير ختام» وأن يثبت إخلاصه لشيطان الشر حتى الرمق الأخير!

مثل هذا الشخص كيف أستطيع أن أراه بشرًا كالبشر.. له ذصائصهم وهيئتهم الآدمية حتى ولو كان يظهر بمظهرهم؟ إن النظارة القديمة «تجسّمه» لى على الفور إذا صادفته فى أى مكان فى هيئته الحقيقية، وهى هيئة تمزج بين ملامح الشياطين وأجسام الوحوش الخرافية الضخمة التى انقرضت قبل ملايين السنين، وقد ينتابنى نفس الفزع الذى داهمنى فى مشهد السيارة المنحرفة فى دار السينما القديمة.. إذا رأيته مصادفة عن بعد.. فكيف يكون الحال إذا اقترب منى؟

وخذ أيضًا ذلك الشخص الذى يجتر أحقاده على الجميع بلا استثناء ويخيل إلىَّ أنه يجرى حسابه كل ليلة فى فراش النوم ليراجع كم من البشر نجح فى إيذائهم ذلك اليوم.. ويُعد «خطته» لأذى الغد داعيًا شياطينه أن توفقه فى النيل منهم والدس لهم واغتيالهم معنويًا.. كيف أستطيع أن أراه إلا فى هيئة مماثلة لهيئة تلك الوحوش الخرافية؟

وغير هذا وذاك كثيرون قد تراهم حولك وقد تسمع عنهم.. وقد تجبرك الظروف على التعامل معهم فتشعر بحاجتك إلى مثل هذه النظارة القديمة لكى تراهم بها فى هيئاتهم الحقيقية.. وتتجنب أذاهم.. وتفر منهم فرار السليم من الأجرب.

وترى بماذا سوف يناجى أمثال هؤلاء أنفسهم وهم يراجعون حياتهم فى أخريات العمر ويتهيأون للرحلة الأبدية؟ هل سيقول أحدهم: حسبى أننى لم أقدم الأذى سوى لبضع مئات من البشر؟!

أم تراهم سوف يظلون مخلصين للشر والجحود وهتك الأعراض والحرمات والكرامات حتى الرمق الأخير.. حتى يعجزوا عن كل ذلك بحكم الضعف وانعدام القدرة على الشر فى نهاية العمر.. فيكونون كمن ينطبق عليهم قول القائل:

- لم يتركوا الذنوب حتى هجرتهم الذنوب!

أى حتى عجزوا عن ارتكابها بسبب الضعف وضياع النفوذ وانعدام الحيلة.. تمامًا كما يكف شارب الخمر عن احتسائها لأنه لم يعد يجد ثمنها.. أو لأن الطبيب أنذره بالهلاك إذا استمر فى شربها.. وليس صدوعًا بأمر ربه أو اتقاءً لمعصيته.. أو كمن يكف عن السرقة لضعف البصر وليس لأن السرقة حرام!

وترى كيف ستكون «هيئاتهم» حينئذ من خلال تلك النظارة الورقية القديمة إذا نظر إليهم أحد بها فرأى سجلهم المخزى من الأذى والحقد والغدر والجحود والتطاول على حرمات الآخرين، وانتهاك القيم الأخلاقية والدينية «مجسمًا» فوق صفحة وجوههم؟ وألا تشعر أنت بحاجتك إلى مثل هذه النظارة لترى بها حقيقة بعض من يتحركون فى الدائرة المحيطة بك!

معى.. الله ينظر إلىَّ.. فمضى يفعل ذلك كل ليلة حتى إذا بلغ السابعة من عمره قال له خاله: أمن كان الله معه وينظر إليه أيعصيه؟ فأجابه بالنفى.. وبفضل هذا التوجيه البسيط أصبح الطفل واحدًا من كبار العارفين بالله وهو سهل بن عبد الله التسترى، والمشكلة أنه بعد أكثر من ألف عام على هذا التوجيه.. نشعر أحيانًا بأننا نحتاج لأن «نذكر» به بعض «البغال» البشرية الذين يمضون فى الحياة وكأنهم وثنيون لا يخشون ربًا.. ولا يعرفون إلهًا.. فننبهم من جديد إلى هذه الحقيقة الكونية، وهى أن الله ينظر إليهم وسيحاسبهم على جناياتهم على الآخرين ذات يوم قريب أو بعيد، وأن من مصلحتهم هم قبل غيرهم أن يخشوه بعض خشيتهم لرؤساء العمل الذين يملكون لهم الضر والنفع فى الدنيا!

كما يحتاجون أيضًا لأن نذكرهم بأننا لانؤذى أحدًا فى الحقيقة إلا أنفسنا، وعلى كل إنسان إثم ما يفعل، فليكثر منه أو فليقلل كما يشاء.. فلكل إنسان أن يضع نفسه حيث يراها جديرة به.. ولكل أفعاله ثمن واجب السداد إن لم يحن اليوم فسيحين غدًا..

وهذه هى خلاصة التجربة كلها.. لكن من يقرأ ومن يتعلم؟!

بل ومن الذى يستطيع أن يقول مع محتشمى زايد بطل رواية «يوم مصرع الزعيم» لأمير الرواية العربية نجيب محفوظ وهو يراجع حياته ويأمل فى رحمة ربه: حسبى أننى لم أقدم الأذى لأى إنسان؟

المحتويات

١٨- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٩- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٠- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢١- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٢- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٢٣- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٤- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٥- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٦- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٧- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٢٨- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١
٢٩- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١

• كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية»

٣٠- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة ١٩٩٨
٣١- وقت للسعادة.. وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
٣٢- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ١٩٩٦
٣٣- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٣٤- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٣٥- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٦- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
٣٧- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٨- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠

كتب للمؤلف

١- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧
٣- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٤- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠١
٥- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٦- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٧- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٨- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٩- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
١٠- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
١١- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
١٢- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٣- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٤- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
١٥- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٦
١٦- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
١٧- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠

٣٩- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٤٠- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٤١- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠
٤٢- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠
٤٣- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٤٤- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٤٥- حكايات شارعنا		الطبعة الأولى ٢٠٠١
٤٦- قالت الأيام		الطبعة الأولى ٢٠٠٢
٤٧- الرسم فوق النجوم	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٢
٤٨- تحية المساء قصص إنسانية		الطبعة الأولى ٢٠٠٢